
تشرشل
كتاب الشهر
لمحمد صبيح

[الغلاف من رسم الفنان الأستاذ عبد السلام الشريف]

تشرشل



محمد صبيح

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما أكثر الشهور التي مرت منذ كف «كتاب الشهر» عن الظهور في مطالع الأهلة ، يطالع الناس بصور من فهم صاحبه لأبطال الدنيا ، وصانعي تاريخها ؟ وما أشق هذه الفرقة على نفس كاتب نشأت بينه و بين قرائه مودة أكدتها الأيام وزادت في نمائها ؟ وما أبهج اللحظة التي ينطلق فيها هذا القلم من عقاله ، و يشق حجب الظلمات التي فرضت عليه طوال ثلاثة أعوام ، وحالت بينه و بين أن ينشط ، و إن لم تحل بينه و بين أن يفكر و يقدر و يدبر الأمر تدبيرا .

هؤلاء نحن نعود بعزم جديد ، نحمد الله على أنه زاد ، وأنه يزيد ، ونتابع سيرنا في الطريق الذي شققنا صخوره حتى تمهد ، وسار فيه من بعدنا كتاب وناشرون قادرون ، ولئن كان الإملاء

هذا جميلا فى عالم الفرص ، إلا أنه كان يكون أجمل فى عالم الخلق لو أنهم أشاروا ولو بإيماءة خفيفة إلى أول الرواد الذين سبقوا ، وكان لهم جهد لا تزال ذاكرة الناس متنبهة له تستعيده الحين بعد الحين ...

ومهما يكن الأمر ، فدنيا العمل تتسع للعاملين المخلصين ، وكل يد تمتد إلى رفع لواء الثقافة العامة بين أبناء العربية فهى يد جديرة بالتهنئة والتشجيع .

ونحن كما كنا منذ يومنا الأول ، نختار لقرائنا سير الأبطال ، وسير الحوادث قاصدين باختيارنا إلى هدف محدد ، وغرض واضح مبين ، فقد قدمنا ثمانية كتب لثمانية أبطال معاصرين ، كانت أسماؤهم تملأ الدنيا ضجيجا ، وتثب بالسياسة الدولية فى منعرجات جديدة ، ومسالك تبهر الناظرين .. كانت « الدكتاتورية » ورجالها هى طراز جديد فى التفكير والتنفيذ يحتاج إلى بحث وتقديم ، وفورة من فورات التاريخ قيدت إزاءها الكتاب والباحثين . كانت أسماء هؤلاء الرجال لامعة فى السماء تكسف كل ما حولها من كواكب ونجوم ، فكانت لها فى كتبنا الصور التى رأيناها منها فى ذلك الحين . ثم انتقلنا إلى أنضر صفحات تاريخنا القديم نختار من أبطاله ما تدفىء سيرهم صدورنا ، وتزين أعمالهم حياة البشرية كلها ، حتى بلغت عدة ما نشرنا عنهم عشرين كتابا .

ثم كانت الحرب الحاضرة ، وكانت آراؤنا فيها ، وكانت هذه العزلة الطويلة بيننا وبين قرائنا ، حتى شاء الله أن نعود . وما كان يمكن ، وهذه الحرب تبدل من معالم الكون تبديلا ألا نفتتح مجموعاتنا بالحديث عنها وعن رجالها ، وعن سير قادتها . فنحن قد تحدثنا عن العظماء المعاصرين كما رأيناهم ولم تكن براكين الغضب والموجدة بين الشعوب و رؤسائها قد تفجرت وأخرجت من جوفها كل هذا الحمم الذى لا يبقى ولا يذر .

ومع استعراضنا لأحوال الدنيا ورجالها المعاصرين ، سنعرج على براجنا التى لم تتم بعد ، فننثر عطرا من شذى أبطالنا و بناة نهضتنا فى الشرق القريب ، والشهداء والمجاهدين فى التاريخ القديم كما سنضيف إلى سير الرجال ، صورا عن مؤسسات الحضارة الكبرى طبيعية وصناعية ، على نحو جديد نرجو أن نوفق فى تقديمه إلى قراء العربية .

* * *

ونحن إذ نعود لنكتب كما نريد ، نحب أن نقف ونطيل الوقوف عند هذه الحرب الهائلة ، التى تلفح بشواظها وجه الدنيا بأسرها ، وما تزال تدمى جراح الإنسانية ، وتريق منها الدم والدمع الهتون ..

وهذه الحرب بما بدأت به ، و بما صارت إليه، درس ، بل هى أقوى مؤثر يمكن أن يمر فى حياة إنسان ، وفى حياة شعب من الشعوب . ونحن الذين عشنا فى هذه الحرب ، أو على الأصح الذى عشناها ، ووجدنا فى أنفسنا قدرة على أن ننفذ الى ما وراء ظاهرها ، لاينبغى علينا أن نكتم ما نعلم ، ولا أن نهمس فى آذان الناس بما تقرئنا إياه الحوادث . و إنما يجب أن نتحدث ، و بالصوت العالى ، وأن ننادى أمتنا ، وأن نرفع النداء بأن تجد وألا تتخلف عن ركب الدنيا التى تنطلق فى حركتها بسرعة ، وكأنما لم تعرف القيود أو تسمع بها ...

وأول هذه الدروس التى تلقيها الحرب علينا أن الدنيا انقسمت ، أو هى توشك أن تفعل ، الى مجموعات قليلة من الشعوب الضخمة تتوزع النفوذ ، وتقتسم مغانم الحرب والسلم جميعا .

و يروعنا قبل كل شيء ، هـذه الأمة السلافية التى أخرجها ستالين من حدودها ، فاذا بها تهدم بمظهرها ومخبرها كل الأوهام التى عرفت عنها ، وأصبحت تشبه هذا الجنى فى خرافة القدماء الذى سجنه سليمان فى قمقم ، فلما رفع عنه الغطاء ، امتد ، وتطاول حتى صافحت رأسه عنان السماء ... أيمكن لروسيا الجديدة التى صنعت فى هذه الحرب المعجزات أن ترتد مرة أخرى الى القمقم القديم ؟

طبيعة الأشياء تأبى أن نذهب وراء هذا الظن وترجح ان ستكون لروسيا فى سياسة العالم المقبلة آراء.. ولكن روسيا ليست دولة عادية تواصل تاريخها و يألف الناس سيرتها ينكرون بعضه و يقبلون البعض الآخر . فهى دولة الشيوعيين ودعوتها تخلب لب عدد عظيم من العمال فى أوربا وأمريكا . وما ظهر حتى الآن من ثبات البنيان الذى شيده زعماؤها فى وجه أعظم إعصار هب على أمة فى التاريخ، يحمل الشعوب على أن تزيد التحديق فى هؤلاء الروس والتفكير فى أمرهم . ولا يمكن أن نقول أن ما تتأثر به أوربا لا تتأثر به بلاد الشرق القريب . فالعالم الآن وحدة متقاربة الأطراف يتجاوب فيها الصوت ، ورجع الصوت كأنه صندوق مغلق . ونحن نستطيع بسهولة أن نسلم بأن فى نظمنا الاقتصادية عيوبا ، وأن الدعوة الاشتراكية ليست شرا كلها ولكن فيها خيرا ينشده كل المصلحين.. ونحن أيضا نسلم بأن وحى هذا الاصلاح لا يجب أن يهبط إلينا من الروس ونجاحهم فى الحرب أو فى الدعوة لمذهبهم ... فشعوب الشرق قديمة قدم الضمير الإنسانى نفسه . والدعوة الى الاصلاح تطورت فيه وتحولت وأخذت شتى الألوان والأثواب حتى أن الله سبحانه وتعالى لم يهمل هذه الشعوب فأرسل لها وأرسل لغيرها عن طريقها أنبياء ورسلا وكتبا تدعو الى الرفق والاعتدال ورعاية

القصد .. وتصر على أن للغير حقا مستورا لدى كل حى، غير الحق الظاهر المعروف ... وجاء العلماء من بعد الأنبياء يفسرون ويناقشون ويشرعون، وما الإصلاح الماركسى الذى يريد أن يقوم على أنقاض هذه الدعوات القديمة الا حلقة فى سلسلتها الطويلة ، ولكنها حلقة قد تلائم شعبا فيأخذ عنها ، ولا تلائم آخر فيصنع لنفسه من هدى تاريخه وطباعه وتقاليده ما يلائمه .

ولكن الأمر على كل حال جد لا يحتمل اللعب . والتفكير فيه فريضة على كل مخلص لقومه .

ومن اليوم بدأت شعوب أوربا وأمريكا تبحث وتنقب ، لا من وجهة المذهب والتنظيم الاقتصادى فقط ، ولكن من وجهة النظر السياسية أيضا.

فالكثير من صحف انجلترا ومجلاتها الآن تعرض آراء لهؤلاء الذين يقبلون وجود روسيا فى أوربا ويجدون هذا الوجود ضرورة تقضي بها طبيعة الأشياء ومنطق الحوادث الجارية الآن . وتعرض أيضا آراء أخرى لا تقل سدادا ولا حسن بصيرة لهؤلاء الذين ينكرون كل الانكار وجود أمة السلاف فى أوربا ... ويرون أن هذه الحرب بكل تضحياتها تكون قد ذهبت عبثا اذا كان من نتيجتها أن يسعى الدب الروسى فى أرض أوربا بأقدامه ،

او تهب على سطحها أنفاسه . ذلك أن سياسة الانجليز قامت من قديم على ضرورة ألا توجد فى أوربا قوة واحدة حتى يحتفظ الميزان السياسى باعتداله . وجميع الحروب الأوربية - من يوم الارمادا العظيم الى ساعتنا هذه - إنما قامت تحقيقا لهذه الفكرة .

وهكذا يدور البحث وتتقلب وجهات النظر .

وإلى جانب الأمة السلافية وجد رباط جديد بين الأمتين الكبيرتين اللتين تتكلمان الانجليزية - ونعنى بهما انجلترا وأمريكا - فقد سارا - أو أجبرتهما الحوادث على أن يسيرا - فى طريق واحدة ، ويتبعا سياسة مشتركة فى الحرب ويصممان عليها فى السلم . وبذا خرجت أمريكا مرة أخرى عن عزلتها ، ولكن لا لتعود إليها كما حدث بعد ولسن ، بل لتشارك فى تنظيم العالم وتحول بقدر ما لديها من وسائل، ومن إدراك للأسباب المشعلة للحروب، دون اشتباك الدنيا فى قتال جديد .

والمجموعة الانجليزية ليست جديدة، كجدة الروس على تاريخ العالم - وإن كانت جديدة فى تكوينها الحاضر . فقد خبرناها جيدا ووجدنا لها فى تاريخنا آثارا باقية ، ونحن نرتب سياسة اليوم

وسياسة الغد على أساس أن هذه المجموعة باقية وفعالة فى تاريخ العالم مرة أخرى .

وهناك مجموعة جديدة قد يتأخر تكوينها بعض الشيء ولكنها سائرة سيرا حثيثا فى سبيل الظهور ونعنى بها المجموعة الصفراء . فالصين العظيمة القديمة التى سبقت حضارتها التاريخ نفسه تتحرك الآن وتفيق من عبء عشرة آلاف سنة تحملها على كاهلها ، وتتخلص تدريجيا من غبار القرون الذى يتمثل فى الجهل والانقسام وانعدام الرغبة فى التطلع الى أى شيء جديد . كل هذا قد بدأ يتغير وكان السبب الأكبر فيه صدمة الحرب التى بدأت بها اليابان والتى تعم الآن رقعة آسيا الضخمة .

سألت صديقا لى قدم أخيرا من الشرق الأقصى عن تأثير الحرب الأوربية فى الصين . فقال لى : الحرب الأوربية ... إن فى الصين أجزاء لم تسمع بعد أن اليابان تغزو أطراف الصين .

وهذه الفكاهة مستملحة فى الدلالة على اتساع بلاد الصين وضخامة عدد سكانها إذ تبلغ أكثر من أربع مئة مليون . ولكن لا شك فى أن سرعة المواصلات قد قاربت بين أجزاء هذا الجسم المترامى ، وعما قليل سيلعب دوره الخطير ، و إذا كانت روسيا قد عملت ما عملت فى هذه الحرب لأن لها قيادة قوية ، فان الفضل

أيضا يرجع الى وفرة عدد سكانها ، فكلما التهمت الحرب جيوشا ، ظهرت جيوش أخرى تفوقها عددا كأنما نبتت من الأرض أو أمطرتها السماء !

هذه هى زحمة الكون الجديد ، الذى استيقظ، ودبت فيه آراء واتجاهات جديدة .

ونحن لن نقف موقف المتفرج ، و إلا داستنا الأقدام فى هذا الزحام . وظهور الأمة العربية فى وحدة متماسكة مترابطة يساعد على أن نقف على قدمين ثابتين . ولكننا لا نريد أن نقنع بالوقوف ، و إنما نريد أن نسير ، وأن نسير دائما الى الأمام . فأى سبيل نسلك وكيف نختار أصدقاءنا وأعواننا فى انطلاقنا المقبل ؟ هذا ما يجب أن نكرس للتفكير فيه الجهد ..

وأعتقد أن مما يساعدنا على إجادة التفكير وتفتيق وجوه الرأى ، أن تعرض سياسة العالم الجديد على قراء العربية عرضا صحيحا صادقا وسياسة العالم تتصل اتصالا وثيقا بسياسة رجاله ، فانجلترا « تشرشل » غير انجلترا « تشمبرلن » ، وهما معا غير انجلترا « بلدوين » ؛ وروسيا « ستالين » غير روسيا « لينين » غير روسيا قيصر الثانى ؛ وأمريكا «روزفلت» تختلف عن أمريكا منافسيه السابق واللاحق ، وهما ويلكى وديوى لو قدرت لهما

التجربة . كما أن أمريكا روزفلت غير أمريكا هوفر وغير أمريكا ولسن مثلا ... ومصر «فاروق» غير مصر « عباس الثانى » غير مصر «إسماعيل» . هذه حقيقة يجب أن نعرفها وأن نضعها دائما فى حسابنا ..

و إذن ، فأنا عندما أكتب عن تشرشل اليوم ، إنما أكتب لمصلحة مصر والعرب التى نريدها ، وعندما أشرح حياة الأمريكين إنما أقصد قومى .. وهكذا . فما عاد فى وسعنا أن نعيش فى عزلة عن غيرنا بعد أن تشابكت المصالح وتعقدت التيارات الدولية ، وأصبح لا مناص لمن يريد خوض السباق من أن يكون متذرعا له بعدته . ولم أكن كذلك فيما مضى ..

كانت خصومتنا القديمة للانجليز ـ وأنا فى أوائل حياتى السياسية ـ تحملنى على أن أتطرف تطرفا أضحك له الآن ، بل قد أعجب منه .. و إنى أذكر حادثا طريفا وقع لى منذ اثنى عشر عاما أو نحوها ، فقد صدر فى ذلك الوقت كتاب بقلم حافظ عفيفى باشا سفير مصر فى لندن إذ ذاك عن « الانجليز فى بلادهم » . فرحت أحارب فكرة صدور هذا الكتاب ، وأحمل على كل من يتحدث عن الانجليز أو يذكر عنهم شيئا . وكان عنوان حملتى القديمة « كتاب لا نحتاج إليه » . وكأنما كانت الوطنية إذ ذاك عندى

تتلخص فى « ألا نعلم » . أما وطنية اليوم عندى فهى أن نعلم .. أن نتعلم بالليل و بالنهار ، وأن نتابع الدرس والبحث عما نحبه وعما نكرهه على السواء ..

وقد تبدل الأمر بيننا و بين الانجليز ، فقد سارت علاقاتنا معهم خطوات منذ ذلك التاريخ ، ومقدر لها أن تسير الى مدى أبعد . وسيأتى مؤتمر الصلح عما قريب ، و يجب أن نتأهب له بكل عدة باسمنا و باسم جاراتنا العربية .

وأنا أشعر أننا فى حاجة الى إكمال كل عناصر استقلالنا على عجل فليس لدينا وقت نضيعه ، ونحن بحاجة إلى معاونة دولة قوية رشيدة لبناء أسس هذا الاستقلال ، فبناء صناعاتنا ، وتيسير تجاراتنا ، وعلاج أمراضنا ، ومد مواصلاتنا ، وكل ما يحتاج الى خلق فنى من النوع الذى سبقنا به الغرب ، يجب أن نوفر له جهدنا وما فوق جهدنا ، حتى نستطيع أن نقول حقا إننا ظفرنا بشىء نسمى أنفسنا به أمة !

وما أبأس هذه الأمة المستقلة التى يظل جاهلها هو أغلبية سكانها ومريضها هو جملة سكانها ، وفقيرها هو كل سكانها .

نريد أن نبنى حياتنا المقبلة على قواعد راسخة من العلم والاستنارة ، ونريد أن نوسع أفق المعرفة وأفق التعاون الانسانى .

وأرجو أن أوفق الى المساهمة فى هـذه الاستنارة بكتب الشهر ، وكتاباتى الأخرى . وعندها أشعر أنى مصرى أديت واجبى نحو قومى . والله المستعان .

☆ ☆ ☆

١ وأحب أن أزيد على كل ما تقدم أن شخصية « تشرشل » فى التاريخ الحـديث من أمتع الترجمات وأكثرها تأثيرا فى نفس قارئها . فصاحبها من الطبقة الارستقراطية الانجليزية ، عاش حياته الأولى ، فى وقت كانت بلاده تستجم من فتوحات العصر الفكتورى ، وتستمرئ طيبات عهد ذهبى لم يمر على الجزيرة عهد أزهى منه . ولـكن وليد هـذه الطبقة المترفة ، وحفيـد دوق مارلبراه الشهير لم يكن راغبا فى السلم ، ولا تائقا إلى متع الحياة ، ولا شرها إلى أن يعب من كأس النعيم المحيط به كما يشتهى .. لا ، ولـكنه كان يتلهب شوقا إلى المغـامرة . ويسعى إلى مواقف البطولة ينشدها حيث وجدت ، ويلبس لها كل ثوب يلائمها . وتستمر هـذه المطاردة بينه وبين مواطن المجد حتى تصعد به فى عصرنا الحاضر إلى قمة الحكم فى الامبراطورية البريطانيـة ، وقمة الشهرة بين المعاصرين من أبناء هذه الدنيا .

وسبعين عاما عاشها ونستن تشرشل منذ مولده إلى اليوم ليست

بالعمر القصير فى حياة الشعوب الحديثة ، وهذه الحقبة بالذات هى التى دفعت بانجلترا إلى افريقيا و إلى مصر بالذات ، و بدأت تقترن سياستها بسياسة الشرق الأوسط ، وهناك أسرار وأعمال عجيبة ، ستطالعنا بها سيرة البطل الانجليزى ، الذى تنقل من أم درمان بعد أن شهد معاركها الكبيرة ، إلى مدينة الرأس ، حيث وقع فى الأسر ، وكابد مع « البوير » أهوالا جساما . ومما لا يحتاج إلى بيان أنه نجا من هذه المحن الكبرى ، فقد كان مقدرا أن يكون بعد سنين طويلة الخصم الأول للنازية ، والرأس المدبر التى ألبت على هتلر معظم شعوب الأرض ، وما زالت تنتقص من انتصاراته وترده عن حصونه وجدرانه إلى داخل حدوده .

وها هى ذى أضخم حروب التاريخ توشك أن تنتهى وقد طبع عليها تشرشل طابعه ، وأضفى عليها شخصيته ، ودوت بين صحائفها خطبه وخططه ، وسيختم بها مغامراته ، و يالها من مغامرة !

* * *

وكم كان بودى أن أقدم هذه الكتب بأسعارها المخفضة التى تعودها قراؤها ، وتحققوا الفائدة فى حجمها ومادتها . ولكن ضرورات الحرب تحملنا على أن نرفع الثمن قليلا ، رفعا يكون أدنى إلى الاعتدال ، وأعون على متابعة سيرتنا القديمة . وأشعر أنى

مـدين في الوصول لهـذه النتيجة للعونة السخية الكريمة التي يبذلها ناشر هذه السلاسل الجديدة ، صديقي الأستاذ محمد الحلبي فله مني ومن أصدقائي القراء الشكر

وإلى اللقاء إن شاء الله في أول الشهر القادم ؟

محمد صبيح

دار الثقافة العامة في ٦ — ٨ — ١٩٤٤

الانجليز فى سطور (١)

- انجلترا جزيرة تحاط من جميع جوانبها بالأسطول البريطانى
- يعرف « الله » فى انجلترا ، بأنه : الخير ، والعدل ، والمحبة ، والرحمة و ٥٪ فائدة على أى عملية مالية !
- متوسط الدخل السنوى للفرد فى انجلترا - قبل الحرب طبعا - ٨٧ جنيها ، وفى ألمانيا ٤٦ جنيها ، وفى فرنسا ٤٣ جنيها ، وفى ايطاليا ٢٨ جنيها ، وفى مصر جنيه وبضعة قروش .
- انجلترا أول الدول التى أباحت استعمال رايتها الرسمية ، لتكون وسيلة من وسائل الدعاية لتجارتها .
- يقبل الانجليز الاستفادة من كل شىء ، حتى جواهر التاج البريطانى تستطيع مشاهدتها فى قلعة لندن بدفع رسم قدره ٦ بنس .
- الانجليز يحبون الاستقلال حتى فى الدين . ولذا صنعوا

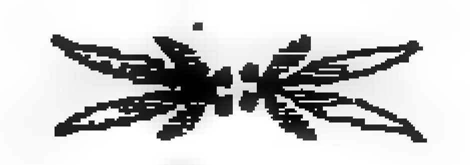
(١) لا يتسع النطاق لعرض حياة الانجليز ، وطابعهم الفكرى والعملى فى إسهاب . ولكنا نستعير أسلوب الحرب فى الكتابة لكى نقدم هذا الشعب فى جمل قليلة تغنى دلالتها عن الشرح المسهب . واعتمدنا على الكاتب المشهور « جون جنتر » فى اقتباس معظم هذه الآراء .

لأنفسهم كنيسة خاصة بهم لا يشترك معهم فى طقوسها أى شعب مسيحى آخر وملكهم هو رأس كنيستهم .

- الانجليز يحرصون على العبادة طوال أيام الاسبوع : فيقضون يوم الأحد فى الكنيسة ، ويقضون الأيام الستة الباقية فى بنك انجلترا
- سبق الانجليز الفرنسيين فى الثورة من أجل حريتهم ، وقطعوا رؤوسا كثيرة منها رؤوس ملوك
- الانجليزى محافظ بطبعه ، ويفهم المحافظة بمعناها الحرفى ، أى انه يتمسك بكل شيء تحت يده
- لا شيء يمكن أن يغير طابع انجلترا إلا نار عظيمة . وجو البلاد البارد وضبابها المنتشر لا يسمح باشعال هذه النار العظيمة
- فى الشعوب الديكتاتورية الفرد آلة تستخدمها الدولة ، وفى النظام الديمقراطى الدولة تضع نفسها فى خدمة الفرد . ولا ينسى أى انجليزى هذا المعنى من الناحية النظرية على الأقل
- حكمت انجلترا حكما ديكتاتوريا مدة عشر سنين فقط فى مدى ٣٠٠ سنة
- عندما تولى بلدوين رياسة الوزارة قابل فى اليوم التالى لورد اكسفورد زعيم المعارضة وألد خصومه لكى يلتمس مشورته ونصحه

- عندما حدث إضراب العمال المشهور سنة ١٩٢٦ فى انجلترا كثرت اشتباكاتهم مع البوليس ، إلا أن فريق العمال اجتمع مع فريق البوليس فى ملعب الكرة يوم الأحد وتباريا مباراة ودية جدا ! !
- كانت انجلترا تدفع ٢ مليون جنيه أسبوعيا (قبل الحرب) لاعانة العمال العاطلين . وقال أحد الكتاب إنها تدفعها لتدعيم البطالة لأن حكومتهم لا تبذل أى جهد لحل مشكلة البطالة .
- أجرى استفتاء حزبى بين العمال العاطلين ، فآثر أكثر من نصفهم الانضمام الى حزب المحافظين ـ لا حزب العمال ، ولا الحزب الشيوعى
- لا يتقاضى رئيس وزارة انجلترا مرتبا ، ولكنه يتناول مرتبه بوصفه رئيس اللجنة المالية ! !
- كان مرتب رئيس الوزارة قبل حكومة تشمبرلن الأخيرة ٥٠٠٠ جنيه ، وقبل أن يستقيل بلدوين زاد المرتب الى ٨٠٠٠ جنيه حتى لا يشتكى خلفه الفاقة
- تولى خمسة أشخاص فقط رياسة الوزارة فى بريطانيا فى مدة ٢٥ سنة . وتولى رياسة الوزارة المصرية فى مثل هذه المدة ١٥ رئيس وزارة

- فى سنة ١٩٣٥ كان عدد كراسى النواب الانجليز ٦١٥
- يتناقص المواليد فى انجلترا ـ خارج فترة الحرب ـ بحيث سيصل تعداد الشعب الى ٣٣ مليون فى سنة ١٩٨٥
- استقال تشرشل من حزب المحافظين لكى يحارب مشروع الحزب الخاص بدستور الهند ، فلما قبل البرلمان المشروع وأخفقت معارضة تشرشل عاد الى حزبه من جديد
- عند نظر هذا القانون عام ١٩٣٥ دعا أسقف كنتربرى الى صلاة عامة فى الكنائس لكى يوفق البرلمان الى إقرار هذا المشروع .
- أكبر المرتبات فى انجلترا تدفع للقضاة ثم للوزراء ثم للسفراء
- رئيس تحرير التيمس من أكبر الشخصيات فى انجلترا ، ويلى رئيس الوزارة مباشرة فى الأهمية ، إلا أنه يفوقه فى قدرته على إسقاط أى حكومة ، ولا تستطيع أى حكومة أن تسقط رئيس تحرير التيمس !!
- تقوم سياسة انجلترا الأوربية على الاحتفاظ بالتوازن الدولى. فلا تطغى دولة على القارة وذلك بشرط واحد ، وهو أن تمسك انجلترا الميزان بيدها ...





والدة تشرشل

عند خطبتها للورد راندولف تشرشل

ميلاد « مغامرة » وشبابها

١

الأمريكية الحسناء

رقص فى سفينة ...

ليس غريبا أن يحدث الرقص فى السفينة ، بل كل الناس فى السفن تميل كلما مالت ، وصافحت جوانبها الموجة الصاعدة ، أو الموجة الهابطة ... ولكن السفينة التى نعنيها لم تكن مبحرة ، ولم تكن من سفن الركاب التى تستقبل السائحين والسائحات . كانت مدمرة حربية من مئات المدمرات التى تؤلف قوة بريطانيا العالمية ، وقد ازينت فى أحد موانى المانش لتكريم أمير أجنبى ، أريد له أن يحس بوضوح أنه فى ضيافة السيادة البحرية العالمية .

وكان من بين المدعوين شاب من سراة الانجليز ، وشبابه يتجلى فى أنه لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، ومكانه يلمح

من أنه ابن الدوق مارلبراه الحفيد السابع لحامل هذا اللقب وكان من أشهر الشخصيات فى تاريخ انجلترا .

ضجت الموسيقى ضجيجها ، والتفت الساق بالساق ، وراح الجمع يضطرب فى خفة ومرح على سطح السفينة ، تظللهم مدافعها المصوبة ! ! ... وكان للورد راندولف صاحب هذه القصة ، حظ النظر إلى الراقصين ، الذى آثره على حظ المشاركة معهم فيما هم فيه . إذ لم يكن يألف هذه التسلية ، وما كان من هواتها . وجاءت جلسته بجوار فتاة حسناء ، سوداء الشعر ، جذابة المحيا . ويظهر أن عزوفهما معا عن مشاركة الصحب فيما هم فيه ، دعاهما إلى السمر بالحديث ، فاذا حديثها فاتن كمرآها ، وإذا هى أمريكية من بنات هذه الحضارة الجديدة الخلابة عبر المحيط ، ولكنها تقيم لفترة من الزمن مع والدتها فى باريس ، مدينة الفتنة والظرف والجمال ، لأن أمها فى حاجة إلى الاستشفاء تحت ظلال برج إيفل !

ولم يضع اللورد الشاب وقته ، فقد استجاب من فوره لهذه الاحساسات الدافقة التى ملأت عليه أقطار نفسه ، وجذبته جذبا عنيفا نحو الأمريكية الباريسية الحسناء . دعى إلى تناول الطعام على مائدتها فقبل . ودعاها إلى نزهة معه فأجابت . وحبب إليه لقاءها على الطعام مرة أخرى فكان ما أراد ، وكاشفها بشغفه بها ،

ورغبته فى أن تكون زوجته ، فقبلت الخطبة بوجه سمح ونفس ترقص بالأمل .

هل يتم الزواج بالسرعة التى تريدها الحسناء وفتاها ؟

كان وراء اللورد الشاب أبوه الدوق ، وكان وراء الأب تقاليد مجتمع ونظام أسرة يتطلع إليها الناس جميعا . ولم يفهم الأب كيف يمكن له أن يصهر لهذا الأمريكى الذى علم أنه يقيم فى نيويورك على بعد آلاف الأميال ، ويشتغل فى أعمال غريبة منكرة ، لا يصل بعضها ببعض أى سبب : فهو صانع سفن ، وصحافى يقترن اسمه بجريدة النيويورك تايمز الشهيرة ، ومشتغل بشركات التلغراف السلكى عبر المحيط ! فأعمال هؤلاء الأمريكان ونزعاتهم كانت عسرة الهضم على فهمه .

وإذن ، فلينتظر الخطيبان بعض الوقت !

ولكن هذا الوقت لم يطل إلا قليلا . فقد رشح اللورد نفسه لعضوية النواب ، وفاز بها فوزا مبينا ، وبذا شجعه اقتحامه الناجح لميدان السياسة على أن يذلل العقبات الفكرية التى أقامها أبوه ... ولم يلبث أن أسرع إلى باريس ، وهناك فى السفارة البريطانية اقترن بصاحبته ، وعاد بها إلى بيته .

ولما تقدم الزمن كان اللوردراندولف تشرشل ينظر إلى وراء

فيجد عام ١٨٧١ عام خير و بركة عليه... فاز فيه بمقعد بين النواب، وظفر بزوجته ، ونجح فى إلقاء خطبته العذراء (الأولى) فى المجلس ، ووفق أيضا فى إنجاب وارث أسماه « ونستن » ...

كان الاسم الذى أطلقه المجتمع الانجليزى على الليدى تشرشل هو « الأمريكية الحسناء » ... وكان هذا وصفا صحيحا . فهى حسناء لملامحها الفاتنة ، وهى حسناء لأنها جمعت فى أزيائها المنتقاة المبتكرة بين ذوق باريس العالى ، وترف أميركا الغالى .

ولكن المجتمع الانجليزى لم يستمر طويلا فى حديثه عن الزوجين الشابين. فقد اقنع دزرائيلى الدوق مارلبراه بأن يقبل منصب الحاكم العام فى أرلندة ؛ عسى أن تخفف شهرة أسرته من غلواء الوطنيين الأرلنديين ، أو ترهبهم قائمة الانتصارات الكبرى التى خلفها رأس هذه الأسرة وراءه ...

و بعد تردد قبل الدوق الذهاب ، وقبل ابنه الشاب صحبته كـكاتم لسره ــ بغير أجر ــ وهناك فى دبلن عكفت الزوجة الشابة على مداعبة صغيرها الرضيع ، ومراقبة نموه ، وفى نفس الوقت كانت تصغى إلى صوت القنابل التى يلقيها المتطرفون الأرلنديون على رجال الحكومة ، وتترامى إليها شتى الأنباء عن الاغتيالات ،

والشروع فيها . وكان القتــل والتدبير له ، هو أدوات الوطنية الأيرلندية فى ذلك الوقت، التى تذرعت بها للظفر باستقلالها .

ونحن لا نجد مشقة فى التعرف إلى إحساسات الصبي الصغير الذى عاش فى دبلن خلال هذه الفترة العصيبة . فقد روع هو بدوره بأنباء مزعجة ، إذ قيل له أن مربية توشك أن تأتى إلى البيت لتتولى الاشراف على شؤونه .

٢

عساكر الخشب وعساكر الميدان

يقول صاحبنا عندما نما ، وحمل على كاهله عبء عشرات من السنين : مربية تحضر لـكى تتولى أمرى ! لقد تصرفت كما يتصرف كثيرون من المظلومين فى مثل هذه الظروف ، فوليت وجهى شطر الغابة ، وأخفيت نفسى بين شجيراتها . ومضت ساعات قبل أن يكشف أمرى ، وقبل أن أرد إلى البيت ، وإلى رعاية « المربية » . وبدأت من الفور المتاعب التى أخذت تتجدد كل يوم . ولم أكن أجرع كؤوس التعب والمشقة ، لتعلم حروف الهجاء فقط ، ولـكن لتعلم ما هو أسوأ ، وأعنى به الأرقام ! !

فما كانت الحرف تحتاج إلى أكثر من أن تعرف ، وعندما يجمع بعضها إلى البعض الآخر بطريقة خاصة ، كان فى استطاعتى أن أميز تركيبها ، فهى تعنى صوتا معينا ، أو كلمة أتمتم بها إذا أرهبت الارهاب الكافى . أما الأرقام ، فيا ويلى منها ، ويا ويلها منى . كانت تتشابك ، وتأخذ كل لون من ألوان التعقيد . وكان بعض هذه الأرقام يصنع بالبعض الآخر الأفاعيل ، التى يتعذر التكهن بأمرها بدقة تامة . وفى كل مرة تشتبك هذه الأرقام (فى جمع أو طرح أو ضرب) كانت المربية تعلق أهميـة كبيرة على أن تظفر منى باجابة مضبوطة ، وإذا لم تكن الاجابة صحيحة ، فهى دائما خطأ ، ولا سبيل إلى ان تكون مثلا نصف خطأ أو قريبة من الصواب . وما أكثر ما كان بعض هذه الأرقام يقترض من بعضها الآخر . وما يلبث الدين أن يرد ويحتفظ بالباقى !

وكثيرا ما كان الطفل ونستن يتطلع إلى معونة صادقة من أمه تخلصه من هذه الأعباء ، وتيسر له الفراغ الكافى ليؤدى واجبات الطفولة فى الحديقة والملاعب . ولـكن أمه كانت دائما فى صف المربية . وكان يتطلع إليها — نعنى أمه — عن بعد كأميرات الأحلام والخيال ، وهو واقع فى منطقة « النفوذ الحيوى » لمربيته . وقد زادت هذه الحالة شغفه بوالدته ، بقدر ما كان يتزايد ألمه وعناؤه من درس الحساب .

ولو أن ونستن أنصف مربيته قليلا ، لعلم أنها تركت للعبه فراغا ، وإلا فكيف كان يجد الوقت ليلهو بهذا العدد الضخم من العساكر الخشبية ، التي كان يصفها و يقودها و يجد لذته الكبرى في السيطرة عليها . ولقد كان لهذه اللعبة المفضلة عنده تأثير كبير في مجرى حياته ، فهى التي وجهت نظر والده إلى إلحاقه بالجيش ، إرضاء لهوايات الطفولة ونوازعها الظاهرة .

وما لبث الصبي أن راض نفسه على احتمال مربيته ، وما في جعبتها من أرقام وحروف لا تنفد ، ولم يكن يحسب أن وراء متاعبها متاعب أخرى . ولكن الغيب القريب تكشف له عن أخطار أشد من كل ما عاني . كانت هذه الأخطار تتجمع في كلمة المدرسة التي سيق إليها عند ما بلغ السابعة ، ولقد أخبروه أن أيام المدرسة هي أحلى أيام الحياة كلها ، وهمس بعض الكبار في أذنه أن المدارس في وقته غيرها في وقتهم ، فان المدرسين القدامى كانوا يبالغون في قسوتهم و يشتدون إلى حد لا يطاق !

اختاروا له مدرسة من أغلى المدارس نفقة ، وقد أنشئت على طراز « إيتون » ، ولم يكن الفصل يزيد على عشرة ، وكانت المدرسة مضاءة بالكهرباء ، وهو أعجوبة ذلك الزمان ، وكانت

بركة السباحة وملاعب الرياضة وأزياء المدرسين الجامعية (كانوا كلهم من حملة الماجستير) مما يخلب اللب .

بدأ درسه الأول هكذا : سأله المدرس :

ـ هل تعلمت شيئا من اللاتينية قبل مجيئك ؟

ـ لا يا سيدى .. ففتح المدرس أمامه كتابا وأشار إلى صفحة .. قال :

ـ هذه أجرومية اللاتينى ! يجب أن تحفظ هـذا الدرس ، وسأعود بعد نصف ساعة لأرى ماذا حفظت .

وأخذ الصبي المسكين ينقل عينيه فى تصريف كلمة « منضدة » باللاتينية ، وقد أضيفت إلى كل حالة فى التصريف الحروف التى تدل على الفاعلية أو المفعولية أو الاضافة أو النداء ... الخ .

وعاد المدرس بعد نصف ساعة يسأله عما حفظ ، فردد ونستن الكلمات الستة التى كانت أمامه كببغاء . وبدا على المدرس أنه رضى عما سمع ، ولكن الغلام الصغير أبى أن تمر الأمور بمثل هذه السهولة فسأله :

ـ ما معنى هذه الكلمات يا سيدى ؟ فأجاب :

ـ إن هذه الكلمات الست تصريف كلمة منضدة فى حالة الأفراد وهى من النوع الأول وتوجد خمسة أنواع للكلمات . فكرر ونستن:



تشرشل

فى الخامسة من عمره

ـ ولـكن أريد أن أعرف معناها ؟

ـ معنى التصريف الأول أنك تستطيع استعماله فى حالة النداء أى إذا ناديت منضدة .

ولما بدا له ان الصبى لم يفهم أيضا زاد شرحه بقوله : عند ما تتحدث مع منضدة . فصاح ونستن فى دهشة وعجب :

ـ ولـكنى لا أتحدث مطلقا مع منضدة ! فرد عليه المدرس فى حزم ينذره بأشد العقاب إن هو عاد إلى مثل هذه الأسئلة !

وهكذا صدمت المدرسة أعصاب الصبى وواجهته محنة شديدة وما أن انقضى عليه عامان وهو يجبر على التحدث فى اللاتينية إلى المنضدة ، حتى ساءت صحته ، واضطر أهله إلى أن يدخلوه مدارس أقل صرامة تديرها مدرسات ، إلى أن بلغ الثانية عشرة من عمره .

وأخيرا جاء وقت مدرسة هاروالشهيرة ، أراد الناظر أن يختبر هذا التلميذ الجديد ، واختار اللاتينية مادة لامتحانه ، وأخذ الصبى يحدق فى الورقة ساعتين و ينقر عليها بقلمه ، ثم أعادها كما هى . ولـكن الناظر كان ذا فراسة ـ أو كما قال التلميذ عن هذه المحنة ـ نظر إلى ما وراء الظاهر ، فقبله على أن يكون فى آخر ... آخر صف من صفوف التلاميذ ، وفى الوقت الذى كان رفاقه يجدون

فى تعلم اللاتينية والاغريقية ، كان هو يجد بهجته الكبرى فى تعلم الأنجليزية .

وكان فى « هارو » حوض سباحة عظيم لا نظير له ، وعند ما يأتى وقت الرياضة كان صبية الفصل الواحد يجتمعون ، وكانت لعبتهم المفضلة أن يدفع أحدهم صاحبه على غفلة منه فيهوى فى الحوض قبل أن يكون مستعدا للسباحة و يضج الباقون بالضحك

وقبل أن يمضى غلامنا شهرا فى معهده الجديد ، لمح عن بعد صبيا صغيرا واقفا على حافة الحوض فتسلل من ورائه فى هدوء وأمسك منشفة وسطه بخفة حتى يسحبها عند سقوطه لئلا تبتل فى الماء ، ثم دفعه ، فهوى فى الماء ، ولكن (وكان اسمه فى المدرسة سبنسر) ما أن نظر ونستن إلى الماء حتى رأى وجها يطل عليه من وسط الزبد — لا عهد له به — وقد اكتسى بالغضب ، وهو يسرع نحو الشاطىء إسراعا شديدا ، فأطلق ونستن ساقيه للريح ، ولكن كيف ينجو ؟ ... أدرك الطريدة فى ثوانى ، وحملها بخفة ، وعاد فألقى بها فى الماء بقوة شديدة ، فغاص ونستن حتى القاع ، ثم جد فى الخروج من حافة الحوض المقابلة وتجمع حوله رفاقه فى دهشة وعجب يتصايحون : ما ذا فعلت ؟ ... إنه « أمرى » من الفصل السادس ، انه بطل الجمباز ، ونال شارات كرة القدم ... الخ .

فسار ونستن يتعثر حتى وصل إلى « أمرى » ، واعتذر له بأنه لم يعرفه من ظهره . ولصغر جسمه حسبه من تلاميذ فصله ، فلم يقنع أمرى بهذا الاعتذار ، وخيل لغريمه أن وصفه بصغر الجسم هو الذى يبقى على غيظه فأردف :

ـ ولكن لا عليك ، فأبى صغير الجسم ، ومع هذا هو من عظماء الرجال ، فانفرجت أسرة صاحبه وقبل اعتذاره . يقول تشرشل :

« كان من حسن حظى أن عرفت « أمرى » بعد هذا معرفة وثيقة . لما لم يكن فرق ثلاث سنوات فى العمر يحدث اختلافا كبيرا بين شخصين كما كان الأمر فى المدرسة ، ولقد تزاملنا فى مجلس الوزراء سنوات طويلة فكنا أحسن رفيقين » !

ويشير تشرشل طبعا الى المستر « أمرى » الوزير الانجليزى الشهير الذى شغل عدة مناصب وزارية .

وعلى الرغم من أن ونستن كان فى ذيل التلاميذ دائما ، إلا أن هذا لم يمنع من أن يحفظ ويتلو على الغيب مقطوعة لماكولى تزيد على مئتين وألف سطر . ولما جاء امتحان المواد العسكرية ، كان فى مقدمة الناجحين على كل رفاق المدرسة الذى سبقوه والذين كانوا معه . . . .

ويقص صاحبنا قصة الحظ الحسن الذى صادفه فى هذا الامتحان ، والذى كان نقطة بارزة فى مجرى حياته ، فقد كان من أهم مواد الأسئلة ، رسم مصور جغرافى ، فوضع أسماء ممتلكات بريطانيا فى قبعته ، كل كتبها على ورقة وطواها ، ثم سحب واحدة فكانت « نيوز يلندة » فحفظها ، وصدق الحظ صاحبه ، فكان أهم الأسئلة مصور نيوز يلندة ، وكان ونستن الصغير من الفائزين .

وهكذا بدأت دراسة تشرشل العسكرية !

وفى إحدى المناورات التدريبية ، زار راندولف تشرشل (أبو ونستن) المدرسة للتفتيش ، وأعجب ما بدا من مهارة ابنه فسأله اذا كان يقبل العمل فى الجيش ، فرحب ونستن ، فما من فكرة تخلب لب الناشئين مثل أن يقودوا الجيوش !

قضى تشرشل أربع سنوات ونصف فى « هارو » منها ثلاث سنين فى القسم العسكرى .

ثم بدأت امتحاناته للالتحاق بكلية سندهرست العسكرية .

وكانت مواد امتحان الدخول فى هـذا المعهد : الرياضة ، واللاتينى ، واللغة الانجليزية ـ وهـذه إجبارية ، وفى المواد الاختيارية كان عليه أن يمتحن فى الفرنسية والكيميا .

وأخفق مرتين فى امتحان الدخول ، وقبل أن يجرب حظه

للمرة الثالثة ، سقط أثناء اللعب من على جسر ، وكادت السقطة تقضي على حياته .. ولولا مهارة الجراحين، وعناية التمريض ، وما أسماه هو « ارادة الحياة » لما عاش صاحبنا حتى يستقبل السبعين من عمره بعد شهرين من تاريخ صدور هذا الكتاب ! !

ولما برئت جراح ونستن، قضى فترة النقاهة، وهو يستمع الى خطباء مجلس النواب الانجليزي من شرفة الزائرين ، وكان آخر القرن الماضي عامرا بأشهر المتكلمين البرلمانيين فى تاريخ انجلترا من أمثال جلادستون واسكويث وروزبرى وسالزبورى ووالده اللورد راندولف تشرشل(١) .

ثم أدى امتحانه مرة أخرى ونجح ، وأغرته ملابس الفرسان الزاهية ، فكتب الى أبيه يستأذنه فى الالتحاق بقسم الفرسان ، ولكن الرد جاءه بالاعتراض على هذه الرغبة ، و باقتراح أن يلتحق بكتيبة البنادق الستين « حتى يستطيع أن يخدم عامين أو ثلاثة

---

(١) يقول المستر تشرشل عن مكان والده فى خطباء عصره : « كانت شهرة جلادستون فى الخطابة تعتمد على ما ينشر من خطبه أكثر مما تعتمد على التأثير الذى تحدثه هذه الخطب نفسها فى سامعيها . أما اللورد راندولف تشرشل فكان مكانه فى تاريخ عصره لا يستند فقط إلى كلماته ، وأعماله ، ولكن أيضا على التأثير الشخصى الذى يتملك سامعيه » .

فى أحد ثكنات البحر المتوسط ، قبل أن يلتحق بجيش الهند

ولكن ونستن التحق بسلاح الفرسان بالرغم من هذه النصيحة ، وفى أقل من ١٨ شهرا كان ضابطا ممتازا .

وعند ما ودع صاحبنا سندهرست للمرة الأخيرة ، وذهب الى بيته ، وقد ختم حياة المدرسة ، وأخذ ينتظر أمر الملكة لتعينه فى مركز من مراكز الجيش ، جالت بفكره خواطر ، وتدافعت فى صدره عواطف . وقد استطاع بعد ثلث قرن من هذا التاريخ أن يصور خلجات نفسه فى هذا الوقت ، ويرسم صورة عن الشباب ما بين العشرين والخامسة والعشرين ، كانت أصدق وأبلغ ما كتب . وما أكثر ما كتب :

« عندما أكر بالذاكرة راجعا الى وراء ، ومستحضراً سنوات ذلك العهد ، لا ألبث أن أرتل آيات الشكر الحارة المخلصة لذات الله العلية التى أنعمت على بنعمة الوجود والبقاء .

« كانت كل الأيام طيبة ، وكان كل يوم أحسن من سابقه ..

« هلموا أيها الشباب فى أنحاء الدنيا كلها . ان عليكم اليوم قبل أى وقت آخر ، أن تملأوا الثغرات التى أحدثتها الحرب فى جيلنا . ليس لديكم وقت ، ولا ساعة واحدة تضيعونها . يجب أن تأخذوا مكانكم فى خط القتال الأول ..

« سن العشرين الى الخامسة والعشرين ... هذه هى أعوام العمر ..

« لا تقنعوا بالأشياء كما هى .

« فالأرض أرضكم وأنتم خلائف الله عليها ... اقبلوا على ميراثكم واحتملوا مسئولياته .

« ارفعوا أعلام المجد مرة أخرى ، وازحفوا بها على الأعداء الجدد ، الذين يتجمعون أمام جيش الإنسانية ، ولا بد من الهجوم عليهم حتى يدحروا .

« لا تكن (لا) جوابكم على أى سؤال .

« لا ترضخوا للفشل والهزيمة .

« ولا يخدعنكم النجاح الذى يظفر به فرد لأسباب شخصية لا تمت الى العمل بسبب .

« سوف تقعون فى جميع أنواع الخطأ .. ولكنكم لن تضروا الدنيا أو تورثوها هما خطيرا ، ما دمتم كرماء ، صادقين ، وأيضا جسورين .

« انما ازينت الدنيا ، ومدت يدها ليظفر بها الشباب .

« وعاشت الدنيا وازدهرت بالجرأة المستمرة التى لا تنتهى . »

* * *

وفى ٢٤ يناير سنة ١٨٩٥ ، أى بعد تخرج ونستن بقليل توفى أبوه .

ومن ذلك الوقت، وصاحبنا يخط لنفسه بنفسه طريق الحياة ، إلا أن أمه كانت عونه الأكبر ، فقد كانت فى الأربعين من عمرها — عند ما تولى عنها زوجها — جميلة وضيئة نشيطة . فأفرغت كل جهدها فى معاونة ابنها ، وعاشا معا ، لا كما تعيش الأم مع ابنها ، ولكن كما تتعاون الأخت مع أخيها ، أو هكذا كان إحساس ونستن بالنسبة لها .

نعمة القلم

١

مغامرات فارس

أحقا خلقت الدنيا للجرىء المغامر ؟ ... هـذا على كل حال ما صدقه الضابط الشاب ونستن تشرشل ، الذى التحق بجيش صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا ...

فليبحث إذن عن مغامرة ، مهما تكن ... وراح يقلب النظر فى أنحاء الامبراطورية البريطانية الفسيحة ، فلم يجد فيها ميادين حرب وقتال تجتذبه ، ولكنه علم أن فى جزيرة كوبا — إحدى جزائر الانتيل — حربا بين الوطنيين و بين الاسبانيين ، فأسرع يتطوع هناك ، حتى تحدد وزارة الحربية مقره ، وقد أفاده هذا التطوع أمرين :

أولهما — أنه رأى — لأول مرة فى حياته — نيويورك وطن أمه وأسرتها ، وشهد آيات من هذه الحضارة الأمريكية المحدثة .

وثانيهما — أنه فى مقامه بهافانا ، ميناء كوبا الكبير ، شغف

بالسيجار الفاخر ، وتعلق به ، وما زال فمه الى اليوم مشغولا بهذا السيجار لا يبارحه .

وانتهت أولى مغامراته بكوباً على عجل ؛ فقد صدر الأمر بأن يلتحق بجيش الهند .

والهند — ألمع جواهر التاج البريطانى — تلهب خيال كل شاب من أهل انجلترا ، والظفر بها كان أكبر غنائم التاريخ كله ، ولا سيما أنه لم يكلف الحكومة البريطانية أكثر من ورقة تعلن فيها التدخل فى شؤون شركة تجارية !

استغرقت رحلة الباخرة الى بومباى ثلاثة وعشرين يوما . وكانت محملة بمئتين وألف من الرجال ، وقد فتنهم ، أو بالقليل فتن صاحبنا الشاب الملتهب العاطفة ، مرأى هذه الميناء الشرقية الكبيرة ، التى تتراءى قبابها ومآذنها ومبانيها من الأفق البعيد ، وتتراقص فوق أمواج الشاطئ أشعة من الذهب السبيك ، لا عهد للقادمين من أقصى الشمال بها ...

إلا أن الشاطئ وفتنته ، والمدينة وزخرفها لم يدوما طويلا ، فما يعرف رجال الحرب قرارا ، وإنما سيقوا إلى جنوب الهند ، حيث تقع الهضبة المثلثة العظيمة ، ومن أجزاء هذه الهضبة ولاية ميسور، التى تبلغ مساحتها مساحة فرنسا. وكانت الحامية العسكرية

فى هذه المنطقة لا تزيد على ألفين إلى ثلاثة آلاف من الرجال .

وكانت « بنجالور » مقر الحامية التى التحق بها تشرشل مرتفعة عن سطح البحر بنحو ثلاثة آلاف قدم ، ولذا كان جوها معتدلا و بديعا فى بعض الأحيان .

ولم تكن موارد ضابطنا الشاب تكفيه للانفاق على نفسه ، وعلى جوادين ، وعلى لعبة البولو . و إذن فالطريق إلى الاقتراض ممهد على الرغم من التنبيه المستمر على الضباط بألا يستدينوا من المقرضين الهنود .

وتحت شمس الهند ، وفى الثكنات التى تقل فيها الأعمال ، بدأت تتفتح شهية تشرشل للقراءة والتعلم . وكان من أهم الكتب التى طالعها مؤلف « جيبون » الشهير عن قيام وسقوط الدولة الرومانية . وقد كان هذا الكتاب من أكبر هداة والده فى حياته السياسية ، وها هو ذا ابنه ينحو نفس النحو ، و يتخذ من تحليل سيرة هذه الامبراطورية التى تداعت درسا تعيه ذاكرته ، يديم التأمل فيه . و إلى جانب تاريخ الرومان ، أخذ يقرأ جمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو ، وسير بعض العظماء . ومال الى الفلسفة ، وعلى الأخص فلسفة شوبنهور ، ثم إلى أمور الدين ومسائلها ...

وهكذا بدأ عهد الاستنارة عند صاحبنا ، و يظهر أن هذه

القراءات لم تكن مرضية ، فقد ظهر له بعد خمس سنين أو ست من هذا التاريخ ، و بعد أن قارب الخروج من الجيش.. أنه فى أمس الحاجة إلى أن يتابع تعليمه ، وحاول أن يلتحق باكسفورد أو كمبردج ، ولكن كان لا بد من أن يؤدى امتحانا ، وفى اللاتينية والاغريقية مع بعض المواد الأخرى.. وحسبه ما ناله من عناء الامتحانات فيما مضى ، فعدل — وهو آسف — عن متابعة التعليم النظامى .

٢
دولة القلم

وفى سنة ١٨٩٧ عاد إلى أوربا فى أجازة ، وبينما هو يتجول ، إذا بجريدة تقع فى يده تنبئه بأن ثورة وقعت على حدود الهند الشمالية الغربية ، ووجد فرصة فى هذا النبأ ، فهو تواق إلى المغامرة ، دائب البحث عنها ، وإذن فليقطع أجازته وليسرع إلى الهند ليطلب الالتحاق بجيش الشمال المكلف باخماد هذه الثورة .

وكاتب قائد الجيش السر برندون بلد ، واستعان بكل وسيلة .. وعلى الرغم من الرغبة العامة فى مساعدته إلا أنهم لم يجدوا له مكانا إلا أن يكون مكاتبا حربيا لإحدى الصحف ، فاتفقت والدته باسمه مع جريدة الديلى تلغراف ، على أن يوافيها بأنباء الحملة . واتفق مع جريدة هندية (Pioneer) على أن يمثلها . وبقى أن يأخذ إذنا بالتغيب من مركز قيادته فى بنجالور .

فركب القطار الى هناك ، وأخذ التصريح اللازم ، ثم سأل عامل المحطة عن المسافة بين بنجالور وبين « ناوسيرا » مقر قيادة السر بلد . فقال له العامل فى هدوء وبساطة : ٢٠٢٨ ميلا !!

وهنا فقط أدرك تشرشــل كيف أن الهند بلاد عظيمة ... عظيمة جدا . ذلك أنه لـكى يصل الى مكانين فيها يحتاج الى أن يقيم فى القطار خمسة أيام ، وهو يعـلم أن من الممكن ، أن يكون المـكانان أبعد من رحلته هذه .

وأخيرا وصل ...

وكان عليه أن ينتظر خمسة أيام حتى يعود القائد من الجبهة ليقدم له نفسه و يحدد له عمله .

وفى هذه الأيام الخمسة ، وجد زملاءه الضباط غارقين فى شرب الو يسكى . وهو يحب النبيذ ... يحبه صرفا وممزوجا — يحب الأحمر منه والأبيض — أما الو يسكى فهو يبغضه ، و يعجب لأبناء اكسفورد وكامبردج الذين يعبون الو يسكى كأنهم أسماك الماء .

عاد القائد، وصحب تشرشل احدى الوحدات، وشارك فى حربها للعصابات ، وتعرض للأخطار الجسام التى لا بد منها ، فهذا هو يحاط به ، و بشرذمة قليلة من رفاقه ومن حولهم عدد عديد من العدو الذى تلمع سيوفه ، وتتصاعد أصـواته ، وتصك الصخر رصاصاته . ثم لا يلبث أن يجد نفسه وحيدا ، يتقدم نحوه رجل يتطاير الشرر من عينيه ، ومن وراء هذا الرجل كثيرون يقتربون فلا يلبث أن ينقذ نفسه من هلاك محقق بأن يطلق الرصاص على

أقرب غرمائه يرديه قتيلا ، ثم يطلق ساقيه للريح ، والرصاص يتهاوى من حوله ولا يكاد يبلغه ، ولكنه يصل الى زمرة من رفاقه و يستمر الكر والفر ، حتى تخضع المنطقة بعد أن تدفع القوة الانجليزية فى كل قرية « أدبت » ضابطين أو ثلاثة وخمسة عشر الى عشرين رجلا .

وهكذا أرضى تشرشل نفسه المتعطشة الى المغامرة والى مواقف الخطر فى الأماكن النائية . ولكن يتساءل بعد هذه المعركة :

« لا أستطيع أن أقول اذا كانت الحملة تستحق كل هذا ، على كل حال تركنا الوادى بعد أسبوعين صحراء جرداء ، وأرضينا نوازع الشرف فى نفوسنا ! »

* * *

وليس يهمنا كثيرا الوقوف عند هذه الحملة التى شارك فيها ضابطنا الشاب ، ولكن ما يعنينا ، وما تتلخص فيه حياة تشرشل المقبلة كلها ، هو المناسبة التى التحق بها فى الحملة ، فقد قلنا أنه كان مراسلا حربيا ، لسبب بسيط ، وهو أن القائد لم يجد له مكانا فى هيئة الضباط العاملين ...

وأدى عمله كمراسل حربى ، فكان يكتب للديلى تلغراف ، وكانت أمه قد اتفقت مع الجريدة ، على أن تدفع له خمسة جنيهات

أجرا مقابل كل عمود تنشره . فهذه صفقة مالية حسنة . ولكن ما هو أحسن من المال أن تنشر الجريدة للشاب الناشىء فى عالم الكتابة . وأى جريدة .. انها من أعظم صحف انجلترا وأوسعها انتشارا .

وعاد صاحبنا الى بنجالور ، وعكف على تأليف كتاب أوسع مما نشر فى الجريدة عن هذه الحملة . ثم أرسله مخطوطا الى أمه . فتولت الاتفاق مع دار نشر مشهورة ، و يظهر أن موجة الحظ حملته فوقها ، بل إن حياته كلها تلونت بلون هذا الكتاب .

فقد انتشر ، واشتهر ، وعلقت عليه الصحف والمجلات ، وراح النقاد يمتدحونه فى اسراف .

حقيقة كان ونستن معروف الأسرة . ولكن لم يلاحظ أحد أنه ابن اللورد راندولف تشرشل عند ما اهتم بكتابه . ولم يراع البرنس أوف و يلز (الملك ادوارد السابع فيما بعد) . الا أن ونستن كتب كتابا حسنا ، على صغره ، عندما أرسل له رسالة خاصة بتاريخ ٢٢ أبريل سنة ١٨٩٨ ، يقول له فيها : أن كتابه يقرأ فى كل مكان و ينصحه بأن يتابع عمله فى الجيش ، ولا تغريه عضوية البرلمان فيهرع اليها ، و يترك عمله فى الجيش ، وما يزال فى سن مبكرة . وقد سر ونستن كثيراً جداً بهذه الرسالة ، ولكنه نسى النصيحة

بعد عامين أو نحوهما عند ما قرر أن يترك الجيش !!

وسنرى بعد حين كيف أن هـذا الـكتاب(١) كان تعويذة الحظ التى فتحت أمام الشاب المجدود آفاقا جديدة كانت مغلقة من دونه حتى لا تكاد تفتح .

ويحسن أن نقف دقيقة أخرى قبل أن نمضى فى سرد تاريخنا. فلدينا فى مصر مؤلفون ولدينا كتاب وفى العالم العربى قراء . ولكن لا أحسب أننى قادر على أن أذكر حادثا كهذا الذى وقع لتشرشل فى فجر حياته قد حدث لكاتب من كتابنا(٢) . فملكة التقدير الأمين لا تزال عندنا فى مهدها . والاقلال من شأن الشباب ومن جهده لا تزال عندنا عادة متبعة . فهناك يكتب ولى عهد الامبراطورية لضابط شاب ألف كتابا صغيرا ولكنه كتاب حسن ، واهتم به رئيس الوزارة وقدره البرلمانيون . ولو أن ضابطا شابا كتب عندنا كتابا لحبسه رئيسه فى « الليمن » خمسة عشر يوما !!

وجرب ونستن حظه فى تأليف القصص، وهو لا يزال فى بنجالور

---

(١) The Malakand Field Force

(٢) كانت تزكيـة الدكتور طه حسين بك لـكتاب أهل الـكهف الذى بدأ به الأستاذ توفيق الحـكيم حياته الأدبية هى التى شقت له طريق الشهرة الأدبية المستفيضة ، ولـكن الفارق بين الحالين واضح .

فكتب قصة سافرولا ، ونشرها مسلسلة فى إحدى المجلات فنجحت وأخلفت عليه ربحا طيبا .

وهنا عاد صاحبنا بذاكرته الى أيام الدراسة وهى لا تزال قريبة العهد منه . فوجد العلامات الحمراء على كراسته تتراقص أمام عينيه وكلها تدور حول معنى واحد : « ردىء . ردىء جدا . مهمل . الخ » ... فتبسم ولوح لخيالاته بكتاب ولى العهد ، ورسائل التهنئة من كل مكان . فتضاءلت . وتلاشت ...

٣
النهر العظيم

علم تشرشل أن حملة جديدة تعد لاخضاع جانب آخر من قبائل الهند الشمالية، وكان الاسم الرسمي الذى أطلق على هذه الحملة، هو حملة تيره « Tirah » . وهل يطيق هذا الشاب المتحمس أن يسمع عن قارعة، ولا يكون فى وجهها أو بالقليل فى ذيلها. راح يقلب الأرض حتى لم يدع حجرا ، و يطرق الأبواب حتى أزعج حكومة الهند كلها ور بما حكومة لندن نفسها . ولكن قائد هذه الحملة لم يستجب لكل هـذا الضجيج ولم يكترث له . فلا نائب الملك ولا رسائل التوصية أقنعته بأن يهضم هذه البدع الجديدة فى نظام العسكرية، ورفض القائد حتى أن يقابل ونستن بعد أن قطع لمقابلته مسافات شاسعة ، ولقد عبر تشرشل عن غيظه من هذا القائد بقوله بعد ثلاثين سنة من تلك الحادثة ، إنه نسى حتى اسمه الذى لا يستحق أن يذكر .

و بينما هو فى موقف القنوط واليأس إذ تولى رياسة الحملة قائد آخر، كانت له صلات بأسرة تشرشل، و يعرفه من قبل معرفة حسنة،

فألحقه بأركان حربه ، وراح تشرشل يفرك يديه سرورا لأن الحظ واتاه ، ولأنه عما قريب ، سيدفئ قدميه بالسير في ميدان المعركة من جديد ، وسيغذى قلمه وخياله بحوادث جديدة ..

وانتقل إلى مركز القيادة وأخذ للحرب كل عدتها . ولكن ما لبث قلم المخابرات أن قضى على كل آماله ، فقد عقد اتفاقات مع رؤساء القبائل الثائرة ضمن بها السلام لمدة طويلة .

وما أكثر ما دق ونسان قدميه في الأرض، وما أكثر ما نعى حظه التعس ! ولكن ، ما ذا تجدى الشكوى وينفع التذمر ؟ ها هو ذا يغادر بشاور غضبان أسفا ، ويقلب نظره في أنحاء الامبراطورية باحثا عن « قارعة » جديدة .

* * *

ولم يطل البحث والتنقيب ، فقد كانت أنباء كتشنر وحملة الجيش المصرى الانجليزى على السودان تملأ الصحف . وإذن فلا بد من البحث عن وسيلة يترك بها جيش الهند ، ويلتحق بجيش النيل ، ولا بد من العجلة التامة ، فان كتشنر بعد أن انتصر في معركة الفركة أخذ يتأهب للزحف على العاصمة السودانية أم درمان[1] بقواته التى تبلغ عشرين ألف مقاتل .

---

(١) خرب المهدى الخرطوم ، واتخذ أم درمان عاصمة له .

وكان تشرشل يعلم بالأحاديث التي تدور من حوله : من تشرشل هذا ؟ كيف يمكن أن يشترك في كل هذه الحملات ؟ ولماذا يسمح له بالكتابة في الصحف وهو لا يزال في خدمة الجيش العامل ؟ وبأى حق يستطيع أن يمتدح أو ينتقد كبار الضباط ورؤساء الجيش ؟ ولماذا يعطف عليه القواد ؟ وما أكثر الأجازات التي تسمح له بها فرقته ؟ فلينظروا إلى الأعمال الشاقة التي يؤديها بقية الضباط، والتي لاتسمح لهم بوقت فراغ يستمتعون به . كفى . كفى . فليس في الطوق السكوت على هذه الحالة ؟ !

على كل حال شرع تشرشل يعمل . قدم طلبا للالتحاق بالجيش المصرى تحت قيادة السردار ، وزكت وزارة الحربية طلبه (بناء على تدخل أمه) ولكن كتشنر رفض الطلب !

ورأى أن وجوده في بنجالور لن يساعده على الوصول الى غرضه ، فقرر الرحيل في أجازة الى لندن . وما أن وصل إليها حتى بدأ نشاطه وتوالت الرسائل والتوصيات على كتشنر فرد على واحدة وصلته من الليدى راندولف تشرشل يعتذر اعتذارا رقيقا عن قبوله ، ويقول انه كاد يختنق من كثرة الطلبات ولكنه يعد بالنظر في هذا الأمر إذا جاءت فرصة !

وكانت هذه الاجابات غير المشجعة ، تزيد في قلق ونستن ، ولاسيما

أنه كان فى شهر يوليو والحملة تبدأ زحفها الجديد فى أغسطس وهنا سنحت فرصة ، فقد علم اللورد سالزبورى ، رئيس الوزارة، أن مؤلف كتاب حرب الحدود الهندية «مالاكاند» موجود فى لندن فرغب فى مقابلته . وطار صاحبنا فرحا وراح يحصى الدقائق التى تفصله عن موعد المقابلة ..

هذا رجل عظيم .. سالزبورى رئيس الوزارة لثلاث مرات ، وزعيم حزب المحافظين ووزير خارجية انجلترا، ومسير سياستها حقبة من الزمن طويلة . هـذا الرجل يستدعى مؤلفا شابا من الضباط الصغار لـكى يهنئه على كتاب أصدره .

قابله اللورد بحفاوة وحرارة، وقال له : إنه وجد متعة كبيرة فى مطالعة هذا الـكتاب ، ولم يعجب فقط بموضوعه ، ولـكن إعجابه كان أشد بأسلوبه المتفوق . وقد كان هذا الـكتاب أهم من جميع التقارير الرسمية التى وردت عن الحملة ، واستعان به اللورد وأعضاء مجلس النواب فى مناقشاتهم .

كان هذا التقريظ ، عظيم الوقع فى نفس ونستن ، وقد دام الحديث بينهما نصف ساعة كاملة ، وقال رئيس الوزارة وهو يودع ضيفه : أنه يذكره دائما بأبيه اللورد راندولف الذى قضى معه حقبة من الزمن حافلة بأحداث السياسة (كانا كثيرا ما يختلفان) وأنه يكون ممنونا إن هو سمح بأن يؤدى له أى خدمة .

وعندما عاد ونستن إلى بيته ، راح يفكر فى هذا الأمر : هل يستعين برئيس الوزراء ويقتحم بنفوذه كبرياء كتشنر ، إنها ستكون مشكلة قد تحرج سالزبورى ، وقد تغضب كتشنر ...

ولكن كل يوم يمضى يؤجج فى نفسه نار الرغبة للوصول إلى ضفاف النيل . وقضى على التردد وذهب فقابل سكرتير رئيس الوزارة وساعده الأيمن، وقص عليه القصة. فقال له السكرتير : إنه سيرسل البرقية — بعد استئذان الرئيس — يقترح ولا يأمر ، فاذا جاء الرد على غير مايشتهى تشرشل ... فأسرع ونستن يقول : إنه يرضى به على كل حال .

وأرسلت البرقية ، وجاء الرد على غير ما يشتهى !

وفى الليل قابل سيدة من أصدقاء الأسرة ، زوجة أحد القضاة المشهورين، فقصت عليه أنها كانت تحدث وزير الحربية فأخبرها بأنه مستاء جدا من استبداد كتشنر واستعلائه على أوامر الوزارة. مع أنه لايقود إلا قطعة صغيرة من جيوش الامبراطورية!! (يلاحظ أن الجيش كان مصريا) ! فأسرع تشرشل يقول لها : إن كتشنر لم يرفض توصية وزارة الحربية فقط ، ولكنه رفض أيضا توصية برقية أرسلت له من اللورد سالزبورى نفسه ، فراحت السيدة على عجل تقص هذا النبأ الجديد على الوزير ..

و بعد يومين جاءت تشرشل إفادة تقول : ان عليه أن يسلم نفسه لثكنات العباسية بالقاهرة فورا للالتحاق بحملة السودان ، على أن يسافر على حسابه ، و إذا حدث أن قتل أو جرح بسبب القتال أو بأى سبب آخر فخزينة الدولة لا تتحمل شيئا بسببه !

وهكذا نجحت سيدة فيما لم ينجح فيه رئيس وزارة !

وهكذا بدأت أولى مغامرات تشرشل فى أفريقية ..

* * *

وما أن وردت هذه الرسالة حتى تحركت فى صاحبنا الشاب المغامر كل ملكاته الصحفية . فقد اتصل بجريدة المورننج بوست مرة أخرى عن طريق ابن صاحبها ، واتفق معها على أن يوافيها برسائله من ضفاف النيل ، مقابل أجر مغر ، رضيت به الجريدة ، وهو ١٥ جنيها عن كل عمود تنشره له .

وسافرت أمه معه حتى مارسيليا تودعه ، و بعد ستة أيام كان فى القاهرة ، وكان عليه أن يقطع من العاصمة المصرية الى جبهة القتال نحو ١٤٠٠ ميل ، فركب القطار و باخرة النهر ، ولكن هذا المسافر لم يكن ككل مشترك معه فى رحلته ، فقد كانت له أعباء فوق أعباء الناس جميعا . ألم يحضر الى أفريقية للعمل فى الحملة السودانية

على الرغم من إرادة قائدها العام ؟ ترى هل سيقبله كتشنر وقد اقتحم إليه الطريق بأسلوب شاذ ووسائل لا ترضى ؟ وما ذا على كتشنر لو أنه أمر بأن يظل الضابط الصغير فى القاهرة بدون عمل. وما ذا عليه لو أمر بأن يظل وراء خطوط القتال فى أقسام الأمداد أو التموين أو غيرها فيكون محاربا أشبه بالقاعد وحاضرا كالغائب ؟ وفى كل خطوة تقربه من مقر كتشنر كان يزداد قلقه وتشتد هواجسه ، وكان يتطلع فى هم متزايد الى رسائل البريد والبرق ، فقد تحمل له كل منها خيبة أمل لا قبل له بها . وحمد الله فيما بعد أن لم يكن اللاسلكى اخترع ، وإلا فانه كان يضيف الى همومه هما جديدا !

ولكن كان يعود فيقول : وهل لدى كتشنر من فراغ الوقت ما يمكنه من أن يلقى باله الى مسألة ضابط صغير يضاف الى الحملة أو يرد عنها؟ ربما لم يكن يعلم من الأمر شيئا. وعند ما انتهت الحوادث ، ووقف على تفاصيلها التى غابت عنه ، قيل له أن برقية تعيينه الواردة من وزير الحربية عرضت على كتشنر. فهز كتفيه ولم يعلق بكلمة واحدة!

ولا نريد أن نصف حرب السودان .. فسيكون للمهدى وحركته ، ولكتشنر وحربه ، نصيب من كتب الشهر القادمة .

ولكننا نقتصر من هذه الحملة ، على الدور الذى قام به هذا

الضابط الشاب ، وقد وضع نفسه باختياره بين فكى الأسد... ونعنى بالأسد قائد عارض فى التحاقه بجيشه !

ففى ذات يوم انتدبه قائد وحدته لكى يركب جواده ويقترب من الخطوط الأمامية حتى يرى بنفسه جيش التعايشى ، ويسرع عائدا إلى مركز القائد العام يبلغه بما دل عليه الاستطلاع منذ لحظة، وما يتأكد هو منه بنفسه ...

وكان حسنا جدا أن يذهب فى هذه الرحلة الاستطلاعية . فهذا عمل لاغبار عليه ، بل كان يوده ويتمناه ، ولكن أن يعود ليخبر كتشنر بما رأى ، فهنا موطن الخطر وموضع المحنة الكبرى.. وقد صدع بالأمر ذاهبا الى أمام ، وصدع به عائدا الى وراء ، ولكن صورة واحدة لم تبرح مخيلته ، وهى أن يسأله كتشنر عن اسمه.. وما أن يعلم به حتى ينفعل ويعقد ما بين حاجبيه ، أو يمسح شاربيه ثم يقول فى صوت حديد : أظن أنى أمرت بأن تبقى وراء الخطوط فما الذى جاء بك الى هنا ؟ هيا عد الى أسوان ، أو الى القاهرة ، واغرب عن وجهى !

ولكن تشرشل قدر أنه يحمل خبرا هاما ، وهو أن العدو (جيش التعايشى) على مرأى العين من خط القتال وأنه يتحرك للهجوم . ولم تكن لدى القائد فكرة عن وصوله الى هذا المكان

القريب ، فمن يدرى ؟ قد يشغله هذا النبأ الخطير عن البحث وراء الضابط الصغير ، وقلب خططه وهدم آماله بكلمة واحدة ...

وصل الضابط الفارس الى قلب الجيش ، وتراءى له العلمان المصرى والبريطانى ، فعلم أنه غير بعيد عن كتشنر ، فخب بجواده ودار نصف دورة ، حتى جاء وراء جواد القائد ، ثم حيا وقال: أنه قادم من وحدة كذا وأنه رأى العدو ... واستمر فى ذكر تقريره . فسأله كتشنر : و إذا استمروا فى الزحف فمتى تظن أنهم يتصلون بنا ؟ وهـذا سؤال يمتحن فيه ذكاء الضابط . ففكر على عجل وأجاب فى ابتسامة : بعد ساعة أو ساعة ونصف . فأبدى كتشنر عدم ارتياحه لهذا الجواب . ثم أشار للضابط إشارة الانصراف . فلكز جواده ، وفى ثوان كان خارج منطقة القيادة ، وهو يحمدالله على النجاة ، ولكنه مع هذا ، عاود التفكير فى السؤال الذى ألقاه عليه كتشنر . وكان قد قدر سرعة مسير الدراويش بأربعة أميال فى الساعة ومدى ما بين الجيشين سبعة أميال ، و بذا يكون قادرا على الهجوم بعد ساعة ونصف !

وفى طريق عودته رآه بعض ضباط المخابرات ، فقدموه الى قائدهم الجنرال ونجت ، الذى رحب به و بقى فى هذا المعسكر للغداء — وهو فى الحقيقة — يبحث عن الأخبار و يشم رائحتها . ثم لا يفتأ يسأل عن المسافة وسرعة زحف العدو ...

وعاد الى معسكره ، وفى الفجر ، ندبه قائد وحـــدته للقيام بالاستطلاع ، وإرسال أنبائه فوراً الى القائد العام ، فاستصحب معه ستة عساكر وأومباشى ، وسار معهم فى خط منفرد بين الواحد والثانى نحو مئة متر ، حتى لا يحدث لهم جميعا حادث واحد اذا تجمعوا فتضيع أنباؤهم ...

وارتقى تلا ، وأخذ يحدق فى الأفق نحو معسكر العدو ، ورأى لدهشته ألا معسكر وألا عدو هناك ... إذن قد رحلوا فى الليل الى كردفان ... هذا نبأ عجيب ! وإذن فلن تكون هناك معركة ! ولكن رويدا ... فقد انجابت طبقة من ظلام الفجر ، وظهرت وراءها بقع سوداء ... ما هذه ؟ ... إنها هذه المرة المعسكر ، فلم يرحل أحد وستكون المعركة ! وحدد مكان العدو بالضبط ، وانتزع من مفكرته ورقة وكتب عليها تقريره ووقعه هكذا (X X X) وأرسله الى كتشنر. وبدأت الشمس تتهادى صعوداً ، وكان منظرها رائعا ، ولكن هناك ما هو أروع ، فقد كشف المنظار المكبر مرأى العدو وتبين أنه عبأ نفسه للزحف ، بل هو يتحرك فعلا . ووصلت الى آذان تشرشل أصوات عالية ، فقد كان الدراويش يصلون الفجر ويكبرون !

وظل يراقب تحرك العدو حتى أصبح على بعد ٤٠٠ ياردة من مركزه . ولما فكر فى العودة ، أقبل أومباشى من مقر القيادة ومعه أمر للضابط ، موقع عليه من كتشنر نفسه ، بأن يبقى حيث هو ، ويوافيه بتحركات العدو !

عجبا ... فى مطلع الشمس ، ومن على ظهر جواد ، كان عليه أن يستطلع حركات العدو ، على مرمى قذيفة من خطه الأمامى !

وتابع عمله حتى أصبحت المسافة بينه وبين الزاحفين ٢٠٠ ياردة ، فى حين أن المسافة بين خطهم الأمامى ، ومدفعية جيش كتشنر نحو ١٢٠٠ ياردة .

وبعد قليل أخذت بطاريات كتشنر تطلق قنابلها على الدراويش فقد كانوا هدفا سمينا واضحا جدا ، وأخذت نيرانها تحصدهم ، وصفوفهم تنهار واحدا بعد واحد . ولكنهم مع هذا لم يكفوا عن التقدم ورصاص بنادقهم ينطلق بغير حساب !

وبدأ الخطر اللاحق يقترب من تشرشل . فقد كان لديه أمر بالبقاء حيث هو من القائد العام . وها هى ذى طلائع العدو تدور حوله ، فلم ير بدا من أن يطلق الرصاص قبل أن يكشف مكانه من أوائل القادمين . وفكر فى أن ينحاز الى جانب النيل ، فيتمكن من كشف الجيشين معا ويكون فى مأمن من الخطر الداهم .

ولكن جاءته النجدة ، فى رسالة من قائد وحدته ، يأمره بالعودة على عجل ، لأن جيشه سيبدأ باطلاق نيران البنادق !

وكانت نيران الجيش المصرى البريطانى، ومدفعيته الأرضية والنهرية من الكثافة والتركيز، بحيث صدت الدراويش عن الهجوم المواجه على الجيش، بعد أن كبدته خسائر فادحة ومزقت وحدته تمزيقا تاما .

وكان جيش التعايشى يتكون من ٦٠ ألفا ، واحتياطيه يتكون من ١٥ ألفا ، وهذا الاحتياطى لم يخض المعركة بعد .

ولم يأبه كتشنر لهذا الاحتياطى، ورأى الفرصة سانحة، فأصدر الأمر بالزحف مباشرة الى أم درمان محاذيا للنيل، الذى كان على ميسرته ، وكان غرضه أن يسترع هو الى المدينة قبل أن تعود فلول جيش التعايشى إليها وتتجمع فيها ، و بذا يتركهم فى الصحراء ، فيعاون هذا على زيادة تبددهم !

وكان هذا الزحف يعرض ميمنة كتشنر لهجمات مستمرة من عدوه ؛ وقد وقع عبء هجومه الأول على كتيبة الفرسان التى يوجد بها كتشنر ، وتمكن أمراء التعايشى ، ونخبة جنده ، من الالتحام المباشر بالجيش الزاحف ، واختلط الرجال، ودارت حرب رهيبة، بالمسدس والسلاح الأبيض، وفجأة وجد تشرشل أمامه أحد

الدراويش، وقد سقط على الأرض فى حالة فزع . ولكن تبين من عينيه ، أنها حيلة يريد أن يقتنص بها جواده من أسفل ، ثم يقتنصه هو ، فتخلص منه . وفى ثانية، كان آخر يهوى نحوه بالسيف ، ولكن الرصاص عاجله فهوى الى الأرض .

وتراجع تشرشل بجواده خطوات ونظر بتمعن ، فاذا جموع من الدراويش ، تلمع حرابها ، ويتطاير الشرر من عيونها ، تتواثب نحوه ، ونظر حوله فلم يجد فردا واحدا من جيشه . وإذن فقد عزل مرة أخرى ، ولكن وسط عدد كبير من طالبي دمه ؛ وهنا أحس بخوف جارف يتملكه ، ووجد النجاة فى أن يلوى عنانه ويسرع الى أقرب مركز من مراكز جيشه .

وهذا ما حدث فعلا . وبذا قدرت له النجاة .

وبعد قليل انتهت هجمة الدراويش، وتحطمت حدتها ، وفتح الطريق الى أم درمان .

وبعد شهور .. كان كتاب يعد للنشر، عن حملة النهر العظيم، بقلم تشرشل .

٤

صاحبة الجلالة

كانت هزيمة جيش التعايشى تامة ، ولذا قرر كتشنر أن يستغنى عن خدمات كتيبة الفرسان لأنها غالية النفقة ، و بذا وجد تشرشل نفسه مرة أخرى « خاليا من العمل » ، وقرر أن يعود إلى لندن .

ولكن عرضت له ، وهو يغادر القاهرة الى بلده ، حادثة عجيبة ، فقد كان أحد زملائه الضباط فى رفقته . وكان مصابا فى رسغه بضربة سيف مزقت عروقه ؛ ولما كشف عليه الطبيب ، وجد حالته خطرة وكان إسعافه الوحيد شريحة صغيرة من جلد إنسان تلصق بمعصمه ، وتلتئم معه ، وتقدمت الممرضة لتكون الضحية ؛ ولكن هذا لم يكف ، وأومأ الطبيب الى تشرشل ، فتقدم فى دهشة ، ولم يتردد الجراح ، فقد شرع مبضعه ومقصه ، وكشف عن ذراعه ، وأخذ « يسلخ » منه قطعة .

ونجحت العملية للمريض ، و بقيت آثارها الى اليوم فى ذراع تشرشل ، ولكنه طبعا ، لم يكف عن المرور على صاحبه ، والكشف

عن معصمه والتحديق فيه .. فقد كان له حق .. كان « جلده » في هذا المعصم من حقه الاطمئنان عليه !

وما أن عاد تشرشل الى بيته حتى بدأ يفكر في أمره من زاوية جديدة . فان أباه لم يخلف له ثروة تذكر . فقد كانت نفقاته كثيرة . وحدث فى آخر عمره أن اشترى أسهم منجم ذهب فى جنوب أفريقيا بخمسة آلاف جنيه . وما لبثت أسعار هذه الأسهم أن زادت زيادة فاحشة فقد تضاعفت خمسين أوستين ضعفا . وكان ربع مليون جنيه الذى نجم عن هـذه الصفقة ثروة حقيقية . ولكن ما كاد يموت حتى عادلت ثروته ديونه . وبذا لم يخلف شيئا يذكر .

ولم يكن تشرشل يعتمد على مال والدته فى قليل أو كثير . ولكن نفقاته مع هذا كانت كثيرة جدا ، سواء فى حملات الحرب أو ملاعب البولو . ولم يكن مرتب الـ ٥٠٠ جنيه الذى يمنح له يكفيه . وتأكد بعد تجربة خمسة أوستة أعوام أن المهنة التى تعلم للتخصص فيها لا تكفى نفقاته . كما أن تجربة كتبه ومقالاته فى الصحف أقنعته أن قلمه قد يصنع منه كاتبا ناجحا ، غير مقتر عليه فى الرزق كما تصنع به الجندية .

وقدر أنه اذا ترك خدمة الجيش ، فسيكون فى جيبه نحو

٣٠٠ جنيه أجر مقالاته فى جريدة المورننج بوست عن معركة أم درمان ، وعند ما يظهر كتابه سيفىء منه ربحا حسنا . كما أنه كان لا يزال يكتب أسبوعيا فى الجريدة الهندية (Pioneer) التى اتصل بها أول عمله فى الصحافة ، وكان يتقاضى ثلاثة جنيهات عن كل مقال يرسله لها .

وهكذا وجد أن خدمة صاحبة الجلالة الصحافة تفيده مالا وشهرة ، أكثر مما تفيده الخدمة فى جيش صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا .

ثم ان عضوية البرلمان لا تزال فرصتها سانحة له .

وقدر له بعد عشرين سنة (فى سنة ١٩١٩) أن يرث من إحدى عماته ميراثا حسناً . ولكنه قبل هذا الميراث لم يكن يعتمد على مليم إلا ما يأتيه من كده وعمله فى الجيش ، أو فى الصحافة والتأليف أو فيهما معا .

ولكنه قبل أن يرحل الى الهند لكى يقدم استعفاءه من عمله العسكرى ، أحب أن يهىء لنفسه فرصة يجرب فيها نفسه كخطيب ، وخطيب فى دوائر المحافظين بصفة خاصة ، فقد كان منهم ، وهو يؤمن بإيمانهم ، ويسير سيرتهم كما كان أبوه من قبل .

ولا بأس من أن ينتهز فرصة الدعاية لأحد مرشحى الحزب ،

لـكى يقول كلمته العامة الأولى على الجمهور . وقد تأهب لهذه الخطبة تأهباً كبيراً.. كتب كلمته وأنفق الليل كله فى حفظها عن ظهر قلب، وفى صوغ العبارات الأنيقة التى يدعو فيها لحزبه ولمبادئه . ثم جاملته جريدته المفضلة المورننج بوست بأن أوفدت مندوبا يكتب ما يرى وما يسمع . وجاءت الساعة ، وكانت الخطبة ناجحة ، وكتبت عنها الجريدة ، ولـكن الذين حضروها كانوا مئة فقط . وزادوا قليلا فى أثناء إلقائها !

* * *

وبارح لندن الى الهند . ولـكنه أقام فى القاهرة أسبوعين ، لـكى يكمل ويراجع كتابه عن « معركة النهر » أو معركة أم درمان . وفى القاهرة قابل معظم الشخصيات المصرية والبريطانية الـكبرى . ووصف هؤلاء الذين قابلهم « بأنهم هم الذين عملوا خلال عشرين عاما لـكى يرفعوا مصر من وهدة الفوضى[1] ، والرشوة والهزيمة الى مستوى لائق من النجاح فى الحـكم . »

وكان من أظهر الشخصيات الانجليزية التى قابلها ، اللورد كرومر. وقد عرض عليه كتابه مخطوطا ، فقرأه كرومر بعناية ، وأعاده

---

(١) كان للورد راندولف تشرشل رأى فى الحملة البريطانية ضد عرابى سنعرض له بعد .

له ، وما أن ألقى تشرشل عليه نظره حتى عادت اليه سنوات «هارو» وأيامه كلها فى المدرسة . فقد جرى قلم كروس الأزرق فى أكثر من مكان مصححا ، ومعلقا ، ومستنكراً أحيانا... وكتب له رسالة يقول له فيها أنه يعامله كما يحب هو أن يعامل من الناس ، و يرجو أن يتلقى ملاحظاته بصدر رحب ، ولا سيما اذا كانت صادرة من شخص تدفعه الصداقة الى ذكر نقداته وختم رسالة له بقوله : « من الأشياء القليلة جدا التى لا تزال تدخل البهجة على النفس أن أرى الشباب يشقون طريقهم و ينجحون » .

وقد أحاط كروس صاحبنا بعناية ملحوظة مدة مقامه فى مصر حملته على أن يلهج بالثناء عليه ثناء مستطابا ...

* * *

وفى حياة الانسان الكثير من الحوادث التى تستملح روايتها والتندر بها . وما وقع لتشرشل من هذا القبيل ليس بالشىء القليل ومن النوادر ما يبهج... ومنها مالا يبهج ... ولكنه يترك فى الذهن تأثيراً حاداً ... فقد حدث أثناء هذه الفترة من حياة صاحبنا التى يريد أن يكرسها للقلم ، طارحا السيف جانبا ، أنه كان يتلقى الكثير من الرسائل تأتيه موجات بعد موجات تهنئه فيها بمقدرته ونبوغه فى فن الكتابة ، وأن قصصه من أمتع ما يقرأه الجيل . ولم يكن



تشرشل

ملازم فى فرقة الهوسار

تشرشل قد نشر حتى ذلك الوقت غير قصة « سافرولا » التى أشرنا إليها ، فعجب لاهتمام الناس بها الى هذا الحد ، وزاد فى عجبه أن كتب التهنئة والتشجيع كانت تأتى بوفرة ، ثم لا تلبث أن تنقطع وتعاود الظهورة مرة أخرى . وكان يلمح فى ثنايا هـذه الرسائل أشياء غامضة ، و إشارات لم يستطع تبينها ..

وفجأة هبط عليه التفسير .. ولـكنه تفسير أضحكه ، ودعاه الى أن يخفف قليلا من زهوه وغلوائه . جاءته رسالة من « ونستن تشرشل » الـكاتب الروائى الذين يقيم فى بوستن بأمريكا ، يعرفه بنفسه ، ويقول له إن من الخطر على الـكاتب الحربى الذى أرخ حوادث الحدود فى الهنـد ، وسجل معارك أم درمان ، واهتم به قراء الديلى تلغراف والمورننج بوست .. من الخطر عليه أن يلتبس اسمه بكاتب ، لا يتجاوز حدود القصة ، ولا يهتم بالحرب والمعارك ولا يزج بنفسه في مغامرات خطرة لا قبل له بها .. و يقترح عليه أن ينشرا بيانا مشتركا بتوقيعهما معا ، يقدم كل منهما نفسه لقرائه بسماته وصفاته و بتعديل يسير فى اسم ونستن تشرشل الأنجليزى ؛ بأن يضيف وسط اسميه كلمة « سبنسر » حتى يكون التميز كاملا ..

و يتحدث تشرشل « الإنجليزى » عن هذه الملابسة بقوله : انه عند ما زار بوستن فى عامـه القادم ، كان أول من لقيه سميه

الأمريكى ، الذى احتفى به مع عصبة من أصدقائه احتفالات حسنة ولكن هذا اللقاء لم يمنع من حدوث مفارقات فى بوستن نفسها. فقد كان بريد الإنجليزى يسلم للأمريكى ، وكانت فواتير الطعام وغيرها تسلم للضيف الإنجليزى . ولا حاجة طبعا الى القول بأن هذا الخطأ لم يصل الى نتائج عملية ، فقد رد كل شىء الى نصابه !

* * *

ومفارقة أخرى تحمل وجها عابسا ، ولكنها تحمل فى ثناياها أول تجربة من نوعها لتشرشل .

فقد دعى لمؤازرة مرشح حزب المحافظين فى دائرة أولدهام ، وهذا المرشح شخصية قوية ، مرجحة النجاح. وأعدت العدة للاستفادة من مواهب تشرشل الخطابية التى تجلت فى أول خطبه الانتخابية ..

وأخذ يعد للأمر عدته ، ولكن ما لبث أن حدث حادث مفاجىء ، فقد توفى المرشح ، ولم يكن هناك بد من أن يتقدم داعيته الانتخابية ، ليحل محله ويستفيد شخصيا من مواهبه ، بدلا من أن يفيد بها غيره . أو هكذا أراد القدر ..

وإذن فقد جاءت — على عجل — فرصة ثمينة ، وربما كانت فرصة العمر كله . وكان حزب المحافظين يهتم كل الاهتمام بهذه المعركة الفرعية فى دائرة « أولدهام » ، لأن نتيجتها قد تعزز مركز

الحكومة المؤلفة من هذا الحزب ، وتدل على أن الرأى العام لا يزال يؤازر سياستها .

وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تدافع فى البرلمان عن مشروع قانون خاص بشؤون الكنيسة ، ولكن القانون كان يجد معارضة ملحوظة من الرأى العام . ونصح بعض أصدقاء تشرشل له، كما ظن هو أيضا ، أن التخلى عن حكومته فى تأييد هذا القانون قد يكسبه الانتخاب بسهولة ، فراح يهاجم القانون ، و يقول إنه لن يصوت معه اذا دخل المجلس . ووجد تصفيقاً وترحيباً بهذا الرأى هنا وهناك

وأعلنت النتيجة ، فكان من الساقطين !

وعلم.. ولكن بعد فوات الفرصة ، أن من الخطر كل الخطر أن تتخلى عن حزبك وحكومتك فى خطئها ، وأن الرأى العام من سلامة الغريزة بحيث لا يقبل هذا الانحراف حتى لو كان يصادف هواه . و إنما هناك معنى أقوى من الخطأ والصواب فى الحوادث الجارية ، وهو قوة الخلق التى تتجلى فى أن تتمسك بصاحبك أو جماعتك اذا أحرِجَت أو كانت فى منزلق ، تمسكا أشد عشر مرات مما لو كانت قوية أو ملحوظة النجاح .

وقد لا ينطبق هذا المبدأ تماما على ما بين الأفراد بعضهم و بعض فى الحياة الخاصة . ولكنه فى الحياة العامة ، والحياة الحزبية

من أسلم وأقوم المبادئ ، فهو دليل رجولة وشهامة أكثر منه أى شيء آخر .

ويعلق تشرشل على هذا الحادث بقوله : عش وتعلم . أو بتعبير آخر : ما ضاع من حياتك ما علمك ...

* * *

وما دام تشرشل قد خسر هذه المعركة الانتخابية ، فليخض بالقلم معارك الصحافة . والفرصة مواتية له . والرجل الذى أقلقه أسابيع طويلة ، وكان اسمه وشبحه يثيران فى نفسه أفدح الخواطر ، وهو كتشنر ، لا يزال على المسرح ، ويستطيع أن يكيل له بعض لكمات !

ألم يتخلص من الزى العسكرى وقيوده ؟ ألم يصبح فرداً من آحاد الناس يتمتع من الحرية بنصيب يتشوف له كل رجل فى سلك الجيش فلا يجده ؟ ...

وكان هناك عمل من أعمال كتشنر ، قد عرض على الرأى العام البريطانى ، وكان حديث الناس فى كل مكان . فقد أمر القائد الانجليزى بعد دخوله أم درمان ، بأن ينبش قبر المهدى ، و بأن تفصل رأسه ، وأن تكون هذه الجمجمة من غنائم الحرب .

لشد ما ثار تشرشل على هذا العمل الذى وصفه بالوحشية (١) ، و بنعوت أحد وأمر . وانتقل الحديث إلى البرلمان ، بعد أن خاضت الصحف فيه . ووجه حزب الأحرار لوما شديدا إلى حكومة المحافظين ، قائلا إن مثل هذا العمل يجوز أن يصدر عن «الهون والوندال» ، ولكن لا يجوز أن يصدر عن المحاربين فى العصر الحديث . ورد المحافظون بأن تصرف كتشنر لم يكن أكثر من تلهية لا تستحق كل هذه الضوضاء . ولم يجد تشرشل بدا من أن يرى هذا الرأى ، وحسبه ما كان فى انتخابات اولدهام .

---

(١) سنتناول بالتفصيل هذا الحادث فى كتبنا عن المهدى والتعايشى وكتشنر

٦

الأسير

فى هذا الوقت (أكتوبر سنة ١٨٩٩) كانت جموع البوير فى جنوب إفريقيا كثيرة القلق والتذمر والشكوى من سياسة الانجليز . وكانت تلجأ إلى الحرب إذا اضطرت إليها ، وتجنح إلى السلم متى توفرت دواعيه . وقد حدثت حوادث على حدود الترنسفال دعت حكامها من البوير إلى أن يرسلوا للسلطات البريطانية انذارا نهائيا بأن يسحبوا عساكرهم من منطقة الحدود كلها ، وفهم من هذا الإنذار ومن التصرفات التى تلته ، أن الحرب واقعة لا محالة ، وكانت المدة المحددة فى الانذار ثلاثة أيام لا تزيد .

وما أن وصل الخبر إلى لندن ، حتى أسرعت المورننج بوست تعرض على ونستن تشرشل أن يكون مكاتبها الحربى فى جنوب افريقيا ، وعرضت عليه مرتبا ثابتا ٢٥٠ جنيها كل شهر ، وعقدا لمدة أربعة شهور على الأقل ، مع ضمان جميع النفقات ، والحرية التامة فى العمل والرأى . وكان هذا العقد من أغلى العقود الصحفية لمثل هذا العمل فى صحافة انجلترا حتى ذلك الوقت . كما انه كان شديد

الاغراء لشاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، لايحمل على عاتقه مسؤولية أى عمل أكثر من أن يعول نفسه .. ان أراد !

وكانت أول باخرة تبحر فى ١١ أكتوبر ، فراح يقابل الوزراء ؛ ويجمع المعلومات ويثقف نفسه عن موضوعه الثقافة الواجبة . وكان من أظهر ما وقف عليه أن اخماد حركة البوير يتطلب ٢٠٠,٠٠٠ رجل . كما علم أن « العدو » أى البوير مسلحون تسليحا حسنا ، وهم محاربون شجعان ، وكبار رجالهم مثل الجنرال[1] بوتا ، والجنرال سمطس ، من القواد الأكفاء .

ويعلق تشرشل على ما علمه عن هذه الحرب بقوله :

« فلنتعلم دروسنا » ..

« لا تصدق .. لا تصدق .. لا تصدق ان حربا مهما تكن، ستمر هينة لينة . كما انه لا يوجد انسان مشترك فى هذه المغامرة يقدر مدى المد ؛ ولا عنف الأعاصير التى ستقابله .

« وفى الوقت الذى يستجيب فيه أحد الساسة لنداء الحرب ، ويعطى الأمر باشعال نارها ... فى هذا الوقت ، عليه أن يعتقد أنه لم يعد سيد الموقف ، ولكنه سيكون عبدا خاضعا للحوادث التى لا يمكنه أن يتنبأ بها أو يملك زمامها .

(١) Butha & Smuts

« وفى صباح اليوم الذى تعلن فيه الحرب ، تجد على مقاعد العمل والفصل فى الأمور شخصيات غريبة تتمثل أمامك فى : إدارات الجيش العتيقة ، وفى القواد الضعفاء العاجزين الذين ينفخ الغرور رؤوسهم ، وفى المفاجآت السخيفة ، وفى الخطأ فى التقدير — وهو منكر ... وهكذا ...

« تذكر دائما — أنه مهما تكن ثقتك فى النصر السهل عظيمة فان عدوك لم يشترك فى الحرب ضدك ، إلا وهو يحمل نفس العقيدة ويوقن بأن له الفرصة التى لك » .

* * *

أبحرت السفينة فى موعدها ، وكان على ظهرها مع — تشرشل — السر ردفرز بولر (Sir Redvers Buller) القائد العام للحملة البريطانية ، وأركان حربه . وكان هذا القائد يمضى أيام الرحلة لا يتكلم ولا يناقش ، ولكنه كان هادئا ساكنا مثل أبى الهول .

ومضى على السفينة اثنا عشر يوما ، لم تتلق خلاله نبأ عن الحرب — فلم يكن اللاسلكى قد وجد بعد — حتى يخاطب السابحات فى الماء أو الهواء كما هو الحال الآن . ولكن ظهرت فجأة فى الأفق سفينة قادمة من الجنوب : فأعطيت لها الاشارة كى تدلى بأنباء

الحرب ، فاقتربت إلى مدى ما يرى المنظار المكبر ، وكتب أحد من فيها على لوحة كبيرة :

هزم البوير

جرت ثلاث معارك

قتل الجنرال بن سيموندس

ثم تابعت السفينة سيرها ، وكان لهذه الأنباء مثل انفجار القنبلة بين الركب المسافر . أما السير بولر فلم تبد على ملامحه أية إشارة أو مظهر . وكان الرأى أنه ما دام البوير قد هزموا فيكون كل شيء قد انتهى . وتجرأ أحد الضباط وسأل القائد ، فأجاب : بأنه لا يزال هناك عمل كثير ينتظرهم . وصدقت نظرية القائد ، ولم تصدق نظرية غيره من المتعجلين .

ونحن نكتب سيرة تشرشل ، ولا نؤرخ حروب البوير ، ولكنا نلخص الموقف الذي وجده ركاب السفينة حين وصولهم إلى مدينة الرأس... علموا بأن البوير ظهروا على الوحدات الانجليزية فى كل مكان ، فقد غزوا مستعمرة الناتال وقتلوا الجنرال سيموندس ، ويواجهون الآن جيش السر جورج هوايت فى مقر قيادته بمدينة « ليدى سمث » ، وتعداد هذا الجيش نحو اثنى عشر الف رجلا .

وكانت مهمة هـذا القائد أن يعوق حركات العدو حتى تصل الامدادات من جميع أنحـاء الامبراطورية ، وأن يحول دون أن يطوقه العدو ، بأن يبقى خط رجوعه مفتوحا .

وفى اليوم التالى جاءت الأنباء بأن البوير ردوا على محاولات للسر هوايت بالتعرض لهم ، بأن هاجموا وحداته وأوقعوا بها خسائر كثيرة جداً ، وأجلوه عن مراكزه ، وأخذوا يحاصرون المنطقة .

وبدا أن العناصر الهولندية الأصل ، توشك أن تتحرك وتثور وتتصل بمستعمرة الرأس . وهكذا يمكن القول بأن النفوذ الانجليزى تقلص أو تزعزع ، إلا حيث يمكن للأسطول أن يتسيطر بمدفعيته القوية .

وكان على تشرشل أن يسافر إلى منطقة العمليات الحربية ، ويحاول الوصول إلى مقر قيادة السر هوايت ، تاركا الجنرال بولر وراءه ينتظر الامدادات التى تصل بعد ستة أسابيع . وتمـكن من الوصول إلى مقر القائد فى بلدة (استكورت) فى آخر قطار وصل إليها . ووجد هناك عددا من أصدقائه ، منهم المستر ايمرى ، صديق طفولتـه القديم الذى ألقى به فى حوض السباحة وهما فى المدرسة ، وأخذ منه « علقة » حسنة على هذا العمل . وكان ايمرى المـكاتب

الحربى لجريدة التيمس . ووجد أيضا الكابتن هالدين (Haldane) وكان يعرفه من حملة تيره فى الهند .. وآخرين يطول ذكرهم .

بعد وصوله ، قرر القائد أن يرسل قطارا حربيا إلى الشمال ليستطلع قوة العدو ، ويرهبه بعض الشىء ، ويوهمه بأن وراء الأكمة ماوراءها !!

وكان هذا القطار مكونا من القاطرة وست عربات ، ووضع فيه عدد من حملة البنادق ، ومدفع بحرى صغير كان عندهم . وجعل على قيادة القطار المسلح الكابتن هالدين . وتقرر أن يسافر القطار فى فجر ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٩ . وخطر لتشرشل أن يصاحب هذه الحملة ، ففيها مغامرة من النوع الذى يتعشقه ، وفيها أيضا أنباء تسر قراء المورننج بوست .

سار القطار أربعة عشر ميلا دون أن تبدو أى ملامح للحياة فى الطريق ، أو تظهر من العدو أى دلائل على وجوده . ووقف القطار وأبرق للقيادة بمنطقة وصوله. وحدث بعد هذا الاخطار مباشرة أن ظهرت على البعد وجوه صغيرة تزحف وتقترب ، وتريد الوصول إلى مؤخرة القطار . . وكان هؤلاء هم البوير . . ولم يكن هناك اختيار ، فلابد من العودة على عجل حتى لا يقطع الطريق .

ولكن ما تحاشاه ركاب القطار وقع . فقد أطلقت قنبلة مدفع ، وكادت شظية تحطم رأس تشرشل ، وهذه أول مرة تداعبه فيها شظايا القنابل وربما كانت الأخيرة ! وتوالى إطلاق النار ، وبدأ مدفع آخر من الناحية المقابلة يعمل ، ثم حدثت هزة عنيفة جدا ، أوقفت سير القاطرة التى كانت ترتد بسرعة أربعين ميلا فى الساعة ، فلابد أن شيئا حدث فى طريق العودة ، أو أن ضررا أصاب الخط الحديدى .

ولم يصب أحد من ركاب عربة تشرشل والكابتن باصابات هامة . وبعد مشاورة انتدب تشرشل لفحص الأمر ، والعمل على تيسير عودة القطار . وكان فى استطاعة الكابتن مع رجاله أن يبقوا العدو بعيدا برصاصهم لمدة من الزمن ..

وقفز تشرشل وجرى بجوار القطار إلى القاطرة ، وكان الرصاص يتهاوى كالمطر وصفرت قنبلة فى الهواء ثم انفجرت ، فأصابت وجه سائق القاطرة بجراح غمرته بالدم ..

وكان الموقف حرجا . فلو قتل الرجل —وهو لم يقتل بعد— أو سلم نفسه للعدو وهو محتمل ، لما كان هناك أمل فى نجاة أحد . وأخذ الرجل يصيح وتشرشل يهدئ من روعه ، ويعده بالمكافآت

الثمينة ، ويذكر له أنه ما من أحد يصاب مرتين فى معركة واحدة، حتى اقتنع الرجل ، وعاد إلى مكانه يمسح دمه بيديه .

وتبين بعد هـذا أن عددا من العربات قد انقلب من على الخط ، وبعد محاولات قصيرة أخلى الطريق ممـا يعترضه ، وتقرر أن يحشد الجرحى — وكانوا كثيرين جداً — فى القاطرة ، وأن تعود بمفردها ، ويسير بجوارها الذين لم يصابوا ، ومعهم بنـادقهم يمنعون العدو من الاقتراب .. وكان عدد هؤلاء نحواً من أربعين .

كان تشرشـل فى القاطرة مع الجرحى ، وكان هالدين مع الماشين على الأرض ، وبعد قليل تبين أن القاطرة سبقت ، فأرغم تشرشل السائق على الوقوف حتى يلحقه الباقون ، ولـكن ظهر أن القـاطرة بالقرب من (كوبرى) يحسن أن تتجاوزه فى عودتها وتقف ، فأمر تشرشل بهذا ، ثم نزل لكى يكون مع زملائه السائرين على أقدامهم .

وبينما هو يجد فى سيره إذ لمح وجهين يطلان عليه من يمين وشمال . كانا من العدو . وبحث عن مسدسه ، فوجده قد ضاع . ولم يكن أمامه اختيار ، فأسرع يجرى عائدا ليلحق القاطرة ، والرصاص من ورائه يصك الأرض . ولـكن ما لبث أن سمع حوافر جواد

ثم رأى فارسا بيده بندقية يجد نحوه فى عدو شديد ، فلما داناه أصدر له أمرا بالوقوف ... ولم يكن لدى تشرشل سبيل لمتابعة الفرار ، وإلا فان رصاص الفارس يناله بسهولة تامة ، فهو فى مستوى عال فوق جواده والهدف واضح جدا أمامه ... فوقف ، ورفع يديه اشارة التسليم. ومن هذه اللحظة أصبح أسيرا .

وتبين بعد دقائق أن جميع زملائه الذين تركهم وقعوا أيضا فى الأسر . ولعله تذكر كلمة نابليون : « إذا كنت وحدك أعزل من السلاح ، فقد يلتمس لك العذر إذا سلمت » فاستراح لها قليلا

وهكذا أصبح صاحبنا أسيرا ، وخيل له فى لحظة تعاسة غامرة ، أن مغامراته قد انتهت إلى خاتمة محزنة .

٧

تشرشل المعتقل

بعد ثلاث سنين من هذه الحوادث، كان قواد البوير يزورون لندن، وعلى رأسهم الجنرال بوتا . وضمهم حفل مع المستر تشرشل فأخذ يقص قصة القطار الحربى ، وما حل به ، ويتحدث عن القاطرة التى غادرها ، لكى يكتنفه من فوقه ، ويسد عليه جميع أقطاره فارس تشتعل عينيه نارا ، ويطل الموت من سلاحه ... أخذ تشرشل يتدفق فى الوصف ، والجنرال بوتا ساكت ، حتى إذا انتهى ، فتح الضيف الكبير فمه ليقول فى هدوء ، وكأن صوته يأتى من بعيد :

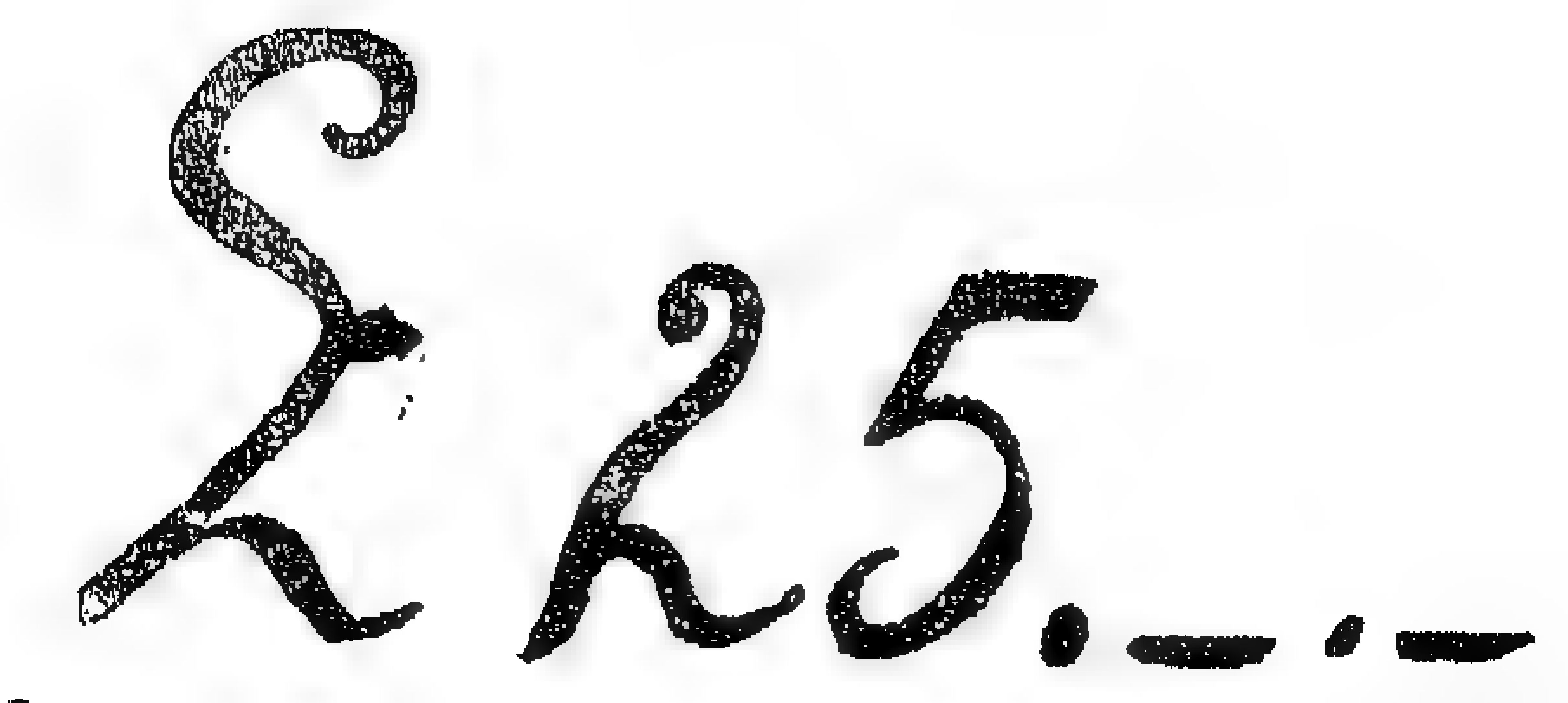
إن دققت النظر الآن يا مستر تشرشل ، فستجد فى ملامحى ، صاحبك راكب الفرس ، يوم القاطرة الذى تتحدث عنه ..

وظهر أن ذلك كذلك . وأن تشرشل وقع فعلا أسيرا فى يد قائد البوير الأول . وسواء أكان آسره القائد العام للعدو ، أم كان أصغر جندى فى آخر الصفوف فالأمر واحد ، ومذاقه المر لا يختلف فى الحالين . فقد فقد تشرشل الحرية ، وأصبح خاضعا للأوامر

التى تصــدر له من حراسه فى طول الطريق من مكان المعركة إلى بريتوريا عاصمة الترنسفال .. هذه المسافة البعيدة التى قطعها سائرا على قدميــه ، وراكبا قطارا ، ومنفذا فى جميع الحالات لجميع الأوامر الصارمة التى كانت تلقى عليه وعلى زملائه .

وأخيرا ، أغلقت من دونه الأبواب ، وقام على معسكر الاعتقال الحراس ، وتحــددت دنيا الأسير فى مساحة ضيقة من الأرض لا يعرف من السماء إلا سماءها ، ومن النسائم إلا ما يمر مصادفة بها . ووجد تشرشل فى المعسكر كثيرا من الضباط الأسرى الذين سبقوه والذين حضروا معه . وقام على خــدمتهم بضعة عشر جنديا من أسرى الانجليز أيضا ...

راحت الخواطر الحزينة تتوالى على ذهنــه المكدود .. هل كان صوابا ماصنع عندما أصر على مرافقة القطار المسلح فى رحلته ؟ هل كان واجبا ما أقدم عليــه عندما غادر القاطرة فى أوبتها لــكى يفقد فى نزوله منها حريته بعد أن كاد يفقد حياته ؟ وفقد الحياة .. هل يساوى هذه الحالة البائسة التى رد إليها . يا ليته قتل قبل أن يحدث له ما حدث . وهكذا ظلت هــذه النفس اللوامة تراجع أمرها ، وتقلبه على كل وجه . ولــكن ما فائدة هذا العتاب ، وكل



(vijf en twintig pond stg.)
belooning uitgeloofd door
de Sub-Commissie van Wijk V
voor den Specialen Constabel
dezer wijk, die den ontvluchte
Krijgsgevangene
Churchill
levend of dood te dezen kantoor
aflevert. —

Namens de Sub-Comm.
Wijk V
Lodk de Haas
Sec

Translation.

£25

(Twenty-five Pounds stg.) REWARD is offered by the Sub-Commission of the fifth division, on behalf of the Special Constable of the said division, to anyone who brings the escaped prisioner of war

CHURCHILL,

dead or alive to this office.

For the Sub-Commission of the fifth division,

(Signed) LODK. de HAAS, Sec.

NOTE.-The Original Reward for the arrest of Winston Churchill on his escape from Pretoria, posted on the Government House at Pretoria, brought to England by the Hon. Henry Masham, and is now the property of W. R. Burton.

٢٥ جنيها ...

تدفعها قيادة الفرقة الخامسة لمن يظفر بالأسير الهارب ونستن تشرشل حيا أو ميتا

شيء قد انتهى، فلم يبق إلا أن يتأمل في هذه السلسلة الطويلة من الأيام والليالي التي ستقبل عليه بغير عدد . كيف يقضيها ، وكيف يطيقها ، وهو الذي جبل على الحركة ، وما طاقت أعصابه البعد عن ميادين المغامرات ، حتى إنه كان يشتريها بالثمن الغالي ، وبالحيلة بعد الحيلة ..

بات ليله مسهداً لم ينم ، وأصبح مهموما لا يكاد ينطق أو يبين من همه ، وما سرّت عنه الصحبة الطيبة التي كانت حوله ، فقد كان في شغل عن كل شيء حوله ، بكل شيء ليس حوله .

هل يقرأ ؟ هل يكتب ؟ هل يتسلى بالحديث أو باللعب ؟ لا .. فما له أرب في كل هذا ، وما من شيء ينسيه حريته . .

هل يبكي ؟ هل يسكت ؟ هل يكتئب ؟ لا .. فما من شيء كهذا يخفف عنه ، أو يحمله على أن يطيق الحياة الجديدة التي هو فيها ..

فراشه شوك ، وطعامه سم ، وحركته قيد ، وضحكته هم ، وروحه لا تكاد تطيق البقاء في هذا الجسد ..

ماذا تقول عنه أمه الآن ، وكيف استقبلت هذا النبأ الغريب .. وماذا يقول عنه أصحابه في نوادي لندن ، وفي معسكر

القيادة .. وكيف يعيش هؤلاء الأحياء الآن ، وقد انقطع ما بينه وبينهم فجأة ، كأنما أسدل الزمن ستارا ..

وهذه الحرب هل ستطول أم تقصر ؟ وهذا العدو هل سيمد لهم فى بعض الحرية أم يحد منها .

كل شيء كان يؤلمه ، وكل شيء كان يذكره بأنه عبد باعته الحوادث بغير ثمن .

السجين يجد فى سجنه تخفيفا لا يجده المعتقل أو الأسير . ذلك أن للسجن أمداً محدوداً مهما يطل سينتهى ، وكل يوم يمضى يسقط من رصيد الانتظار جزءا ، ويخطو به نحو الحرية خطوة ..

أما المعتقل .. أما الأسير ، فعليه ألا يحسب حساب الزمن ، وأن يسقط من ذاكرته أسماء الأيام والشهور ، فما له حاجة بها . لأن كل يوم كـكل يوم ، ولأن كل صباح يقبـل لا يأتى بجديد عن الصباح الفارط ، اللهم إلا أن يزيد فى رصيد الملل ، وفى عبء الضجر ، وفى هموم الانتظار بغير أمل . فما فى الحياة أبأس ، ولا أتعس ممن يوقعه حظه فى مثل هـذا المصير ، الذى لا يدانيه ولا ينحدر إلى مستواه كاسر الحجر ، وحامل الصخر ، فى أكثر السجون شدة ، وأفدحها قسوة .

ولقد تحدث تشرشل عن أيامه الأولى فى المعتقل ، وما أحسه ، وذكر أنه ما من مرة برح خاطره حال هؤلاء الذين يقعون فى مثل هذا المصير . وقد حاول أن يعمل شيئا عن طريق الاتفاقات الدولية لمصلحة هذا الفريق من الناس عندما أصبح وزيرا ، حتى يضمن لهم أنواعا من الترفيه تسرى عنهم ، وتخفف من حالهم الذى لا يشبهه حال .

ولو أن حجاب الغيب كشف لتشرشل لوجد أن أسره هذا ، وما تلاه من أحداث ، هو الذى فتح له طريق الشهرة العالمية ، وكان السلم الذى ارتقاه إلى مجد تطلعت إليه أنظاره وكان بعيدا ، فأصبح قريبا دانى القطوف .

☆ ☆ ☆

مضت الصدمة الأولى للأسر ، وتجرع صاحبنا الكأس بكل ما فيه من مرارة . ولكنه لم يستسلم ، ولم يطل إطراقه ، بل ما لبث أن رفع رأسه ، وراح يحدق فى الأسوار والحراس ويمعن النظر فى الأفق المحيط كله ، عسى أن يكون هناك منفذ ... راح يحصى الحراس ويحصى سلاحهم ، ويعلم نوباتهم ويقيد نظامهم ، ثم راح يختبر — عن بعد طبعا — استحكامات معسكر الاعتقال ، ويبحث

عن فتوق فيها من هنا أو هناك . وتملكته فكرة الهرب حتى غدت حمى يرتعش لها كل بدنه . وما لبث أن كاشف بها زملاءه الأقربين همسا ، ثم ارتقى الهمس حتى وصل إلى كبار زملائه من الضباط والأسرى .

ولكن هؤلاء الكبار لووا أعناقهم ، ومدوا شفاههم ، واستنكروا هذه الفكرة السخيفة ، التى لا يتصورها إلا ذهن تدفعه حماسة الشباب إلى تصور الوهم حقا والنجم فى متناول اليد . وإلا فكيف يمكن — إذا نفذ مشروع تشرشل بالهجوم على الحراس ، والاستيلاء على سلاحهم — أن يغادر هذا العدد من الأسرى المدينة — بريتوريا — وهى محروسة حراسة جيدة ، ثم كيف يخترقون جميعا مملكة العدو إلى ساحل البحر ، ومقرهم يبعد عن الساحل ٣٠٠ ميل ..

نبذت الفكرة إلا من رأس تشرشل . الذى ظل يلح حتى ظفر بزميلين له يتعاونون جميعا على الفرار ، وكان منهما صاحبه الكابتن هالدين .

وكان قد مضى عليه شهر فى المعسكر ، قبل أن يحدد موعد الهرب . وبعد منتصف الليل من يوم ١٢ ديسمبر — وهو آخر شهر فى القرن التاسع عشر — حزم تشرشل أمره ، ومعه رفيقاه

بعد أن وفوا الأمر دراسة وتنقيبا . وكان نظامهم يقضى بأن يبدأ هو . و بعد فترة يلحقان به .

أخذ تشرشل يراقب أحد حراس السور فى منطقة اختارها . فلما انتقل إلى زميل له فى نقطة الحراسة المجاورة لكى يقضى الوقت فى الحديث معه . بدأ الأسير عمله . اقترب من السور فى خفة ، ولكن قلبه كان يدق دقا عنيفا . فقد كانت تكفى لفتة من الجندى حتى يراه ، ويصوب إليه النار فيرديه قتيلا . أمسك رأس الحائط بكلتا يديه ، وأخذ يسحب جسمه إلى أعلى . خارت قواه مرتين ، ولكنه جمع أشتات قوته ودفع نفسه فى المرة الثالثة ، وعلا السور ثم انحدر فكان بجواره من الناحية الثانية .

وانتظر برهة حتى يكف عن اللهث العنيف ، وتنتظم أنفاسه ولمح بطرف عينيه الحارسين فى مكانهما على بعد خمسة عشر ياردة منه وهما يتابعان الحديث . فاطمأن وتسلل إلى الحديقة المجاورة وألقى نفسه بين عشبها ، وكانت شجيراتها تلقى ظلا فى ضوء القمر يصعب معه تبين هذا الراقد على أرضها .

أخذ تشرشل ينصت فى انتباه ، مترقبا قدوم صاحبيه ، وكل دقيقة كانت تضاعف من قلقه وتوجسه . وفجأة سمع من داخل

السور صوتا عاليا ، ففتح أذنيه جميعا .. وسمع اثنان يتحدثان باللاتينية ، فزحف حتى دانى السور من جديد ، ووجدهما من زملائه الضباط ، يتمشيان كأنهما في نزهة ، ويتحدثان بجميع أنواع الهذر ، ويضحكان . وسمع اسمه بين أشتات الحديث فخاطر وسعل سعلة خفيفة . فبدأ أحدهما يتحدث بصوت يسمعه ، ويقول :

— لم يستطيعا الخروج . فقد اشتبه الحراس فى الأمر . هل تستطيع العودة ؟

وتبين لتشرشل أن من المستحيل عليه العودة دون أن يرى . وما دام الحظ قد قذف به إلى الخارج ، فليتابع مداعباته له . كما أنه قال لنفسه : « لاشك فى أنه سيقبض على مرة أخرى ، ولكن ما ضر لو تمتعت بنقودى بعض الوقت » .

وعزم أمره وهمس للضابطين :

— سأذهب وحيداً ..

لم يكن الطريق بعيدا عنه . فوضع قبعته على رأسه ، وسار وسط الحديقة دون أن يتعمد بحال ما إخفاء نفسه حتى جاوز منطقة المعسكر ، وكان اقرب حارس على بعد أربعة أمتار منه ، ولكنه لم يتلفت ولم ينظر إلى وراء ، بل تابع السير كأن لم تكن هناك أشياء وأشياء .

وقد قاوم فى نفسه رغبة عنيفة للجرى ، وتابع السير المعتدل ، ولكن بعد مسير أقل من ١٠٠ متر واجهته المشكلة الجديدة ، وهى أنه أصبح وحيداً فى بريتوريا .

كان الوقت ليلا ، فسار فى الطرقات يهمهم بلحن موسيقى ، ولم يلق أحد إليه بالا . وبعد حين وصل إلى ضواحى القاطعة ، ووجد جسرا صغيرا ، فجلس عليه وأخذ يفكر ويدير الأمر فى رأسه . فهو الآن فى قلب بلاد العدو . وهو لا يعرف أحدا — فردا بعينه — يمكنه أن يعتمد عليه فى موقفه الحاضر . ومن الواضح أن فراره سيعرف فى الفجر . وستبدأ مطاردته فورا . كما أن المدينة والطرق والسكك الحديدية تحرس وتفتش جيدا — كذلك يصنعون فى أيام الحرب .

كان تشرشل يلبس ملابس مدنية ، وكان معه ٥٧ جنيها فى جيبه ، وأربع قطع من الشوكولاته ، ولكن الخريطة الجغرافية والبوصلة والمؤونة كانت مع زميليه اللذين تخلفا عنه . وأسوأ ما كان يعانيه تشرشل هو أنه لم يكن يعرف كلة واحدة من لغة البلاد التى هو فيها — الهولندية أو الإقليمية (كفير[١]) —

(١) توجد قبائل أفغانية تحمل هذا الاسم، وربما كان اللفظ مشتقا من كلة كافر العربية أطلقه عليهم تجار المسلمين الذين ارتادوا هذه المناطق من قديم

حتى يستطيع الاستعلام عن الطريق أو الحصول على طعام . وكلمة واحدة لأى فرد من أهل البلاد ، كانت تكفى للقبض عليه ، وسلبه هذه الحرية المؤقتة التى حصل عليها . ولكن ما دام أمله فى النجاح أصبح معدوما ، فقد زال من قلبه كل خوف . وربما كان هذا العامل ، هو أهم ما عاونه على عدم الخطأ ، الذى يوقع فيه الحذر .

استهدى بالنجوم التى علمته إياها حرب السودان وصحارى النيل ، وسار جنوبا — أو هكذا خيل له — حتى وجد الخط الحديدى . ولكنه لم يعلم هل يسير هذا الخط شرقا إلى الشاطىء ، وهو ما ينشده ، أو يسير شمالا .. ولكن لم يكن هناك مناص من متابعة هذا الطريق على قدميه . وكان الحراس منتشرين ، ولكن سيره الهادىء ، والتفافه أحيانا حول مناطقهم ، مكنه من النجاة منهم .

وفى الطريق خطرت له الفكرة التى حسبها أوفق ما يتبع . فلا سبيل لقطع ٣٠٠ ميل سيرا على قدميه . ولينتظر قطارا يركبه ، ويختبىء تحت أحد مقاعده أو فوق سطحه ، أو فى أى مكان فيه . وسأل نفسه :

— أى قطار آخذ .. وكان الرد حاضرا ، فتمتم .

— أول قطار طبعا .

ويحلو لسارى الليل أن يهمس مع نفسه ويحاورها .

وبعد مسيرة ساعتين اقترب من محطة تراءت له أنوارها على البعد . فاقترب منها وأخذ ينتظر قدوم قطار ، ولكن صبره كاد ينفد . وفجأة دوت قاطرة ، وأخذت تقترب ، ثم وقفت فى المحطة خمس دقائق .

وسار متأهبا ، حتى إذا بدأ القطار رحلته تحرك ببطء شديد ، ولكنه زاد سرعته فجأة ، وتحول خفق عجلاته إلى زئير عال ، فهرول تشرشل ، وحاول إمساك شىء يتعلق به فى القطار ، فأخفق مرة ومرة وفى الثالثة كان يشد نفسه بجدار العربة الخامسة ، ثم تسورها ، وإذا به فى قطار بضاعة ، وإذا بالعربة مشحونة بأكياس فحم فارغة ، ومليئة بالغبار الأسود . فحشر نفسه بينها ، وبعد خمس دقائق كان قد دفن فيها تقريبا . وكان فراشه وغطاؤه ممتعين له إلى أبعد حد . كانا دافئين ، لينين . ولعله لم يبتهج فى حياته بغرفة نوم مثلما ابتهج بأكياس الفحم الفارغة . كان ملمسها حريرا ، ورائحتها عطرا ، لأنها وفرت له

بعض الأمن ، وعشرات من الأميال كان مقدرا له أن يدمى قدميه لقطعها أو يقع فى أيدى البوليس .

ولكن خواطره السود ما لبثت أن ألقت على فرحته ظلها الكئيب . فهو لم يتأكد من أن سائق القاطرة لم يره . و إذا كان لمحه فقد يبلغ عنه المحطة التالية . وهو لا يعلم وجهة القطار ، ولا أين سيفرغ حمولته . وقد يكون متجها الى مكان غير الذى ينشده وهو ساحل البحر ؟ كما أنه لم يكن يعلم ما يعمل إذا أقبل الصباح ونشرت الشمس أشعتها التى تغمر الكائنات جميعا بنعيمها إلا فردا واحدا على الأرض كان يتمنى ألا تطلع .. وهو ونستن تشرشل . وربما تشاركه هذه الرغبة جماعة الخفافيش التى تعشيها أضواء سيدة السماء .

فليترك تدبير أمر الساعة القادمة للساعة القادمة ، وليفرح بأنه ابتعد الآن عن معسكر الاعتقال ، وأنه يواصل الابتعاد بمعدل ٢٠ ميلا كل ساعة .

أسلم نفسه لسلطان النوم . ولم يعلم كم من الوقت نام . ولكنه استيقظ فجأة ليعجل فى اتخاذ قرار عن خطوته القادمة . وكان لا مناص من أن يغادر القطار قبل مشرق الشمس ، وأن يبحث

عن مجرى ماء أو مستنقع يرتوى منـه ، ثم يفىء إلى ظل بعيد ، ويختبىء عامة النهار .

كان القطار لا يزال سريعا ، ولكنه رأى من الخير أن يعجل بمغادرته ، فأمسك مقبضاً حديدياً خلف العربة وهبط ، ثم ألقى بنفسه فصدمته الأرض بعنف ، وأخذ يتدحرج حتى وقع فى حفرة . وقد رض بدنه ، ولكنه لم يصب بأذى . ورفع رأسه من وسط الثرى ، ونظر إلى القطار ــ حليفه العزيز ــ فى أسى وتحسر على فراقه ، ولكن القطار لم يحفل به ومضى فى طريقه .

وتأمل حوله فإذا هو فى واد فسيح تكتنفه التلال ، وتغطيه الأعشاب الوافرة النمو . وكان فى حاجة إلى ماء ، فوجد غير بعيد عينا رقراقه ، أخذ يعب منهـا ويطفىء حرقة جوفه المضطرم ، ويختزن شرابا لبقية نهاره .

ولاحت تباشير الفجر ، وبدأ وجه الأفق يصطبغ باللونين الأصفر والأحمر . وكان لمطلع الشمس فائدة وحيدة ، هى أن تشرشل تأكد من أن الخط الحديدى يسير نحو المشرق ، وأنه فى الطريق الصحيح إلى الحرية .

واتخذ له ملجأ فى دغل قريب ، ولم يكن أحد فى الدنيا يعلم

أين يوجد تشرشل . حتى هو نفسه لم يكن يعلم عن مكانه شيئا .
وكانت الساعة الرابعة ، وكان عليه أن يبقى حيث هوأربع عشرة
ساعة حتى يظلل الكون جناح من الغسق . ووجد الطريد الخائف
له رفيقا فى وحدته المؤلمة . ولكنه كان رفيقا تشق على النفس
صحبته .. كان نسراً ضخم الجثة . رهيب الطلعة ، لم يكف عن
التعبير عن دهشته من هذا الإنسان الغريب الحال ، الذى حط
رحاله فى هذا المكان .

تبلغ بقطع من زاده — الذى لم يكن غير حزمة الشكولاته
التى معه — ولكن الظمأ بدأ يزعجه ، وكانت عين الماء على بعد
نصف ميل من مخبئه ، فلم يجرؤ على الذهاب إليها ، و بقى يحتمل
جفاف جوفه فى صبر وجلد .

ولم ينم إلا غرارا ، وهل لمن كان فى مثل حاله أن يستزير النوم
فيزوره ؟ وحاول أن يستعين بالفلسفة فلم تسعفه ، واستبد به القلق
والتوجس . ولم يجد راحة لنفسه إلا فى التوجه إلى بارىء السماوات
والأرض يلتمس عونه وغوثه ، فكان دعاؤه ينزل على نفسه البرد
والسلام ، ويمسه بجناح من رحمة الله .

ومن الصواب أن نقول إن تشرشل تحول فى مقامه ذاك إلى

أذنين كبيرتين ، وعينين كبيرتين يسمع النأمة البعيـدة ، ويرى الشبح النائى ، ويراقب كل شىء فى حذر الثعلب وسرعة الثعبان .

وأخيراً تصرم النهار ، وكاد الليل يقبـل ، وكأنه لا يريد . وبدأ ينتظر قطارا ، يقله مرحلة جديدة . ومضت ساعة وساعتان وثلاثة ، ولم يأت القطار . ومضت ساعة أخرى وبدأ أمله يتراقص بين الخيبة المرة ولمحة النجاح .. وبعد انتصاف الليل بساعة لم يجد فى جسده عصبا واحـدا يمكنه من الانتظار دقيقة واحدة . وقرر أن يسير على قدميه قبل انبلاج الصبح، عسى أن يقطع خمسة عشر ميلا تقربه قليلا من هدفه .

وبدأ السير ، وكان لا يستطيع استخدام الطريق الممهد ، لأن الحراسة كانت يقظة . فاتخذ طريقه بين الأحراش والمستنقعات وأدغال الحشائش العاليـة . وما أسرع ما حل به النصب وأضناه الجوع ، وظهرت حاجته للنوم . وأخـيراً رأى عن بعد محطة ، ترابط فيهـا ثلاثة قطارات لا يبدو أبداً أن فيهـا علائم الحياة أو الاستعداد للسـير . ورسخ فى ذهنـه أن حركة النقـل تتعطل على هـذا الخط فى الليل . وبدا له أن يختبىء فى قطار يوما أو بعض يوم . وهذا حسن . ولـكن كان يجب أن يعلم إلى أين تتجه هذه

القطارات ، وأين تقف . فهذا هام جـدا . وتشجع وسار وسط قطارين عسى أن يعلم من العلامات الموضوعة على حمولتها إلى أين ستصل . وبينما هو فى مكانه سمع صوت أناس مقبلين يتحدثون باللغة الإقليمية ، ومعهم صوت يتحدث بالانجليزية ، فامتلأ بالرعب وجمد الدم فى عروقه . تراجع فى بطء حتى وصـل إلى الحشائش النامية ثم تاه فى السهل الممتد .

ونظر حوله ، فوجد الأضواء والمساكن تنبىء عن ان الناس فى راحة ، وأنهم ينعمون بالهدوء ، والدفء ، والطعام والشراب . ورأى على البعد أضواء علم أنها ليست أضواء مساكن .

وألح عليه خاطره فى أن يلجأ إلى بيت من بيوت الأهالى فى هذه المنطقة التى سمع فيها صوتا انجليزيا ، فقد كان يعلم أن بعضهم يميل إلى الانجليز . وربما وجد عندهم ملجأ ، تمهده له النقود ، وجد الطعام والدفء ، والطعام .. ولم تـكن هناك حيلة أخرى ، وإلا هلك فى التيه جوعا . وهو مصير غير سار على كل حال .

وبدأ يتجه نحو هذه القرية المضيئة ، وخيل له أنها قريبة ، ولـكنها كانت بعيدة جداً . وبعد مسير ساعة ونصف ، أحس بأن الأضواء تفر منه ، بدلا من أن تقترب .

وأخيراً وصل . وإذا هو لا يصل إلى القرية ، ولكن الحد منطقةمناجم فحم! لم يخطرله مطلقا أن يعود من حيث أتى ، فالطاقة المادية لم تكن تحتمل مثل هذا التفكير. وفكر فى أمره ونظر إلى الخلف فلم يجد وراءه غير طريق واحد هو الجوع والحمى ومعرفة أمره ، والاستسلام .. ونظر إلى الأمام ، فلاحت له فرصة إن تكن ضئيلة إلا أنها محتملة . وكان قد سمع ذات مرة أن البوير احتفظوا ببعض الانجليز الفنيين لادارة مناجم الفحم وأطلقوا سراحهم بكلمة شرف . ومن يدرى فقد يفتح له الحظ أبوابه فيضع يده على بيت انجليزى ..

سار إلى الأمام يجر نفسه جراً إلى المنزل الوحيد الذى وجده وطرق الباب فانبثق نور من النافذة التى فوقه ، وصاح رجل بصوت أجش ، وباللغة الهولندية :

— Wer ist das .. من أنت ؟

وصك الصوت سمع تشرشل وسرت معه فى كل بدنه رعدة عنيفة . فهذا ليس صوتاً انجليزياً كما توقع .. ولكن فليمض قال بالانجليزية :

— أنا فى حاجة إلى مساعدة . لقد وقعت لى حادثة .

وسمع أقداما تهبط على السلم ، وفتح الباب ، وكان الظلام شاملا . ولكن رأى تشرشل رجلا طويل القامة ، ممتقع الوجه ، وشاربه أسود نام على وجهه . قال الرجل — بالانجليزية هذه المرة — :

— ماذا تريد ؟ واندفع الهارب يتكلم ويقول إنه من أهل البلاد ، وكان يزمع الالتحاق باحدى فرق الكوماندو ، فوقع من القطار ، فغاب عن الصواب عدة ساعات ، ويظن أن كتفه أصيبت برضوض .

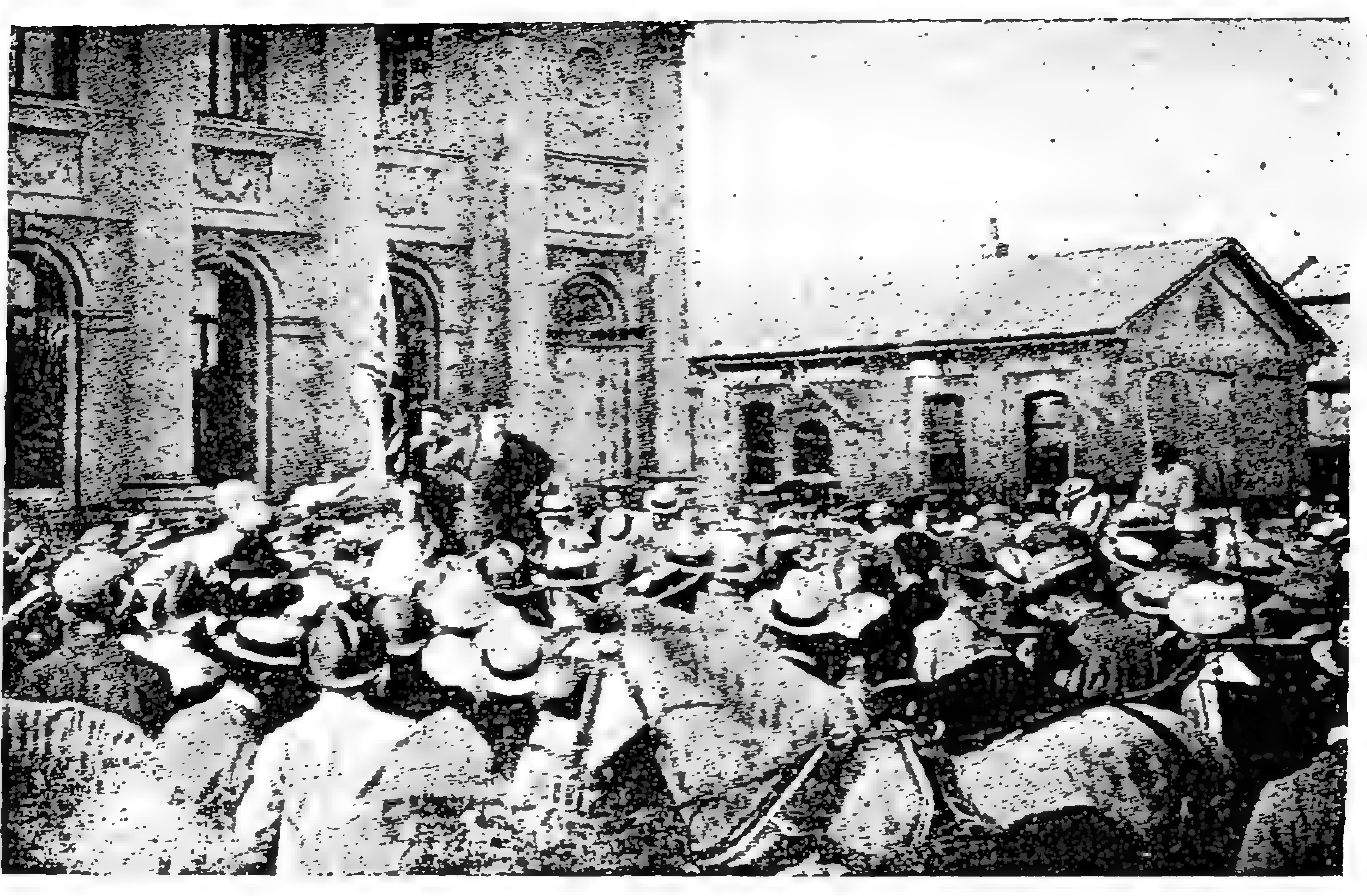
ويعجب تشرشل كيف تمكن من النطق بكل هذا الكلام فى غير تردد . ولم يكن قد فكر فيه قبل خروجه من فمه ، ولا خطر فى ذهنه أنه يقوله . ولكن هو من صنع لسانه فقط . وهو بعدُ كلام مرتب مفهوم . سكت الرجل برهة ثم قال :

— حسنا .. تعال .

سار معه ، وأدخله غرفة كانت مظلمة ثم أضاءها فاذا هى غرفة طعام .

وكان على المنضدة مسدس ضخم تناوله الرجل ، وقال :

— يحسن أن أعرف شيئاً أكثر عن قصة الحادثة التى تزعم أنها وقعت لك ..



تشرشل عند وصوله الى « دربان » بعد هربه من الأسر . وترى جموع كثيرة تستقبله

فأجاب تشرشل :

- أظن من الخير أن أخبرك بالحقيقة . فقال الرجل فى بطء :

- كذلك أظن أنا . فقال الأسير الهارب :

- أنا ونستن تشرشل المكاتب الحربى للمورننج بوست . هربت من معسكر الاعتقال فى بريتوريا فى الليلة الماضية ، وإنى أواصل السير إلى الحدود . ولدى نقود كثيرة : وأنا أنشد المعونة .

وسكت الرجل برهة طويلة ، ثم أشار نحو الزائر مادا يده له فجأة وقال :

- الحمد لله أنك جئت إلى هنا . فهذا هو البيت الوحيد فى مدى عشرين ميلا الذى تجد فيه شخصاً لا يسلمك للبوليس . ونحن كلنا هنا من الانجليز . وسننظر فى أمرك .

ولا تسل عن الاحساس بالفرح الذى يقرب من الجنون ، فأنت لم تجرب أن تغرق إلى قاع المحيط ، وتضيق أنفاسك ، ويقترب حينك ، ثم لا تلبث أن ترى نفسك طفوت بقدرة لا تعلم من أين جاءت ، وإنك فى سفينة مريحة يغنى فيها الناس

بأمرك ... لم تجرب هذا ، ولذا لا تقدر بالضبط الحالة التى كان عليها ونستن تشرشل .

ما أبعد الفرق بينه فى هـذا البيت و بين حاله قبل دقائق : هنا الأمن والطعام والراحة والعمل المـكين المنظم للحرية . وهناك الجوع والخوف والتعب وكل ما ينغص على الانسان الحياة . يقول تشرشل :

« إننى كمن شارف الغرق ، فانتشل ، وأخبر أنه كسب ورقة يانصيب بمبلغ ثلاثين ألف جنيه » .

قدم رب البيت نفسه . فهو المستر جون هوارد مدير مناجم الترنسفال . و يقيم هنا منذ أعوام ، ولأنه انجليزى الأصل أعفى من حمل السلاح ضد مواطنيه الانجليز . ومعه أر بعة تحت إدارته فى نفس ظروفه . أحدهم كاتم سره ، والثانى مهندس ، والثالث والرابع اسكتلنديان من رجال المناجم .

وواضح طبعاً أنه إذا وصل إلى علم السلطات أن تشرشل وجد مأوى فى هذا المـكان ، فسيشنق المستر هوارد ، أو بالقليل يضرب بالرصاص ! وكاشف تشرشل صاحبه بهواجسه ، وحثه على أن يتخلص منه على عجل ، بأن يعطيه بغلا ، ودليـــلا ، و بعض الطعام ...

فطيب المستر هوارد خاطره ، وقال له إن الدنيا قائمة قاعدة من أجل فراره ، وقد قلبوا كل حجر في المقاطعة بحثاً عنه . وكانوا فى هذا البيت قبل ظهر اليوم يسألون .

وهنا وقف شعر رأس تشرشل رعبا .

وعلم من مضيفه أن لديه فى البيت خادمين من نساء المقاطعة، وجميع أهل الاقليم يجيدون الحديث عن أخبار الغير بلباقة ، وهو ما يسمى فى لغات أخرى بالتجسس . ولما كان عملهما فى المطبخ فهما يعلمان على وجه الدقة كل لقمة ويحصون حسابها . فاذا غاب شيء ، كان هذا مدعاة للحديث ، فالشبهة. وهنا الخطر . ولكن لا بأس من المخاطرة بكمية من الطعام . وبكمية من الويسكى . وكانت هذه الوجبة التى لم يذق تشرشل فى حياته أشهى منها ، كافيـة لأن ترد له الروح ، وكل قواه التى فقدها . وتزيد أضعافاً فى أمله الذى ضاع أو أوشك .

غاب المستر هوازد ساعة ، ثم عاد وقد دبر الأمر مع رجاله الأربعة. وعند الفجر قاده إلى غرفة فى أعماق منجم الفحم فى بقعة نائية منه يصعب على أحد العثور عليها ، وعرفه بأحد رجاله ، وهو إنسان فارع الطـول متين البناء من « أولد هام » ، وقد سر تشرشل مرتين ... مرة لأن هـذا المواطن كان فى عونه وهو

يقاسى أخطر ما مر به فى حياته ، ومرة أخرى لأنه ضمن صوتاً فى الانتخابات القادمة لهذه الدائرة . وهى الدائرة التى سقط فيها منذ شهور قليلة ! وليس هذا العامل وحده ولكن زميله الآخر فى المنجم من نفس المقاطعة ، فهذه صفقة انتخابية طيبة ...

وهناك فى عمق سحيق ، آوى تشرشل إلى غرفة مظلمة ... مظلمة ، لأن الضوء لا يأتيها ، ولأنها فى قلب كتل الفحم الهائلة . وقد أعطوه دستة من الشمع لكى يستضىء بها ، وترك المستر هوارد زجاجة من الويسكى وصندوقاً من السيجار ، قائلا له : إن رقيبة البيت لا تعلم من أمرهما شيئاً ، لأنه يغلق خزانته الحديدية من دونهما ... وكان الأمر اليومى الذى صدر لتشرشل هو أن يبقى حيث هو مهما يحدث . وذكروا له أن بعض أهل المنطقة يعملون هنا ، ولكنهم سيكونون لهم بالمرصاد حتى يحولوا أنظارهم عن هذه الغرفة . وما أن غادروا المكان حتى أسلم تشرشل نفسه للنوم .

ومضت ساعات طويلة قبل أن يستيقظ . فلما صحا ، تحسس ما حوله ، وأخذ يبحث عن الشمع الذى ترك له فلم يجده . ولكنه لم يكترث كثيراً ، وبقى ساكناً ، إلا أن رأسه كان ساقية تدور بشتى الخواطر .

وأخيراً ، أخذت أضواء الفوانيس الشاحبة تقترب ، ووصل

المستر هوارد ، ولكنه كان مزوداً بخير زاد : فروج محمر وملحقاته من الطعام ، وعدد من الكتب . وسأله : لماذا لم يشعل شمعه ؟ فأجاب : بأنه لم يجد الربطة بعد استيقاظه . فنصحه صاحبه بأن يضع شمعه تحت الحشية ، لأن فى المنجم مجموعة طيبة من الفيران البيض ذوات العيون السود ، هى سلالة فأر أبيض كان قد أهدى للمدير . وهى من وفرة العدد ، بحيث لا ترهب شيئا . وأحضرت له كمية أخرى من الشمع على أن يحرص عليها .

وعلم تشرشل أن حكومة بريتوريا تبذل أقصى جهدها للعثور عليه ، والشبهات تحوم طبعا حول الرعايا الانجليز فى هذه المنطقة . ومرة أخرى عبر تشرشل عن رغبته فى السير ببغل ودليل ومسدس حتى لا تقع الواقعة ، ويتسبب فى أذى قوم نبلاء مثل هؤلاء . ولكن المستر هوارد أشاح بوجهه مرة أخرى . وقال له إنه يعد للأمر عدته . وإذا حدث أنهم جاءوا لتفتيش المنجم ، فسيأتى إليه أحد الرفقاء الأربعة ليذهب به إلى مستنقع ماء قريب ويغطسا فيه معا حتى ينتهى التفتيش . ولن يخطر على ذهن أحد أن يفتش مستنقعا آسنا !!... وعلى كل حال ، زادَ المدير ورفاقه الأربعة احتياطهم ، بأن نشروا بين الأهالى فكرة وجود جن وشياطين وأرواح شاردة فى المنجم !

وأما إكمال رحلته إلى الحدود ، فستعد لها عدة أحكم من البغل والدليل والمسدس .

و بعد أن تناول ونستن وليمته، بشهية مفتوحة — وكان هوارد قد سافر عشرين ميلا ليحضرها من عند طبيب انجليزى — وأحكم وضع شمعه بين الوسادة والحشية ، تمدد واستسلم إلى رقاد لم يقطعه إلا حركة غريبة منكرة حوله . وتبين له أن المعركة من أجل الشمع دارت بين الفيران و بين استحكاماته . وتمكن فى الدقيقة الأخيرة من إنقاذ ذخيرته .

وفى اليوم التالى — إذا صح أن الأيام تعرف فى مثل هذا المكان — زاره الاسكتلنديان وأقاما يسمران معه قطعة طويلة من الوقت ، ثم أبدى رغبته فى الطواف بالمنجم والتعرف عليه ، فكان له ما أراد ، وكشف من أمر هذا العالم السفلى ما زاد علمه بوطنه الجديد !

وفى اليوم التالى كانت الضجة حول فرار تشرشل قد خفتت فى منطقة المناجم . واستقر رأى الرجال الرسميين على أنه لا يزال مختبئا فى العاصمة — بريتوريا — عند أحد محبى الانجليز . إذ كيف يمكنه أن يغادرها ؟... واستراحوا إلى هذا المنطق وأحكموا الرقابة حول المدينة الكبيرة ، وفى داخلها .

وأمكن للمستر هوارد أن يدعو تشرشل لنزهة فوق سطح الأرض فى ضوء القمر لكى يجدد قواه بهواء منعش . وظل يتابع هذه الرحلة الليلية ثلاث مرات متتاليات ورفيقه فيها منقذه الكبير — مدير المناجم — أو مساعده .

وفى اليوم الخامس لفرار صاحبنا ، كانت العدة قد أعدت لرحيله بالاتفاق بين المستر هوارد وأحد الهولنديين المشبعين بروح الود له . وذلك أن قطارا كان سيغادر المحطة القريبة إلى الشاطىء محملا ببالات من الصوف المضغوط . وقد أعدت العدة لترتيب عربة من عربات الصوف ، بحيث يترك فى جوفها فراغ يأوى إليه تشرشل .

وفى ليلة الرحيل حدث حادث مروع . إذ بينما كان يحصى الساعات القليلة الباقية على البدء فى مغامرته الأخيرة للوصول إلى الحرية ، طرقت مسامعه فى الخارج طلقات نارية متتالية من بندقية أو بندقيتين . ولم يشك تشرشل فى أن البوير جاءوا ، وأن هوارد وأصحابه أعلنوا العصيان ، وأخذوا يدافعون بالسلاح عن المكان . وكانت التعليمات المشددة لديه دائما ألا يبدى أى حركة مهما يحدث . وقد فعل، والقلق يكاد يقتله . ولكن هدأ من روعه قليلا أنه سمع أصوات ضحك وحديث ، ثم مضت الأصوات فى

سبيلها. وظهر المستر هوارد بعد فترة ووجهه شديد الامتقاع . وقص القصة . ومؤداها أن أحد رجال البوير الرسميين قدم ، وذكر أن السلطات قبضت على ونستن تشرشل أمس فى محطة (وترفال بوفن) ! ولم يشأ هوارد أن يتجول الزائر فى المنطقة ، فدعاه إلى رهان لاطلاق النار على أهداف من الزجاجات الفارغة ... وكان رهانهما على جنيهين ، وتعمد هوارد أن يكسب الفارس البويرى فانطلق مسرورا ...

وسأله تشرشل عما يصنع . فقال له :

ـ لا شيء إلا أن تتبعنى ...

وسارا فى صمت إلى القطار — وكانت الساعة الثانية صباحا — واندس تشرشل فى مخبئه الذى أحكم إعداده ومعه زاده .

وفى الصباح بدأ القطار رحلته ، وبدأ صاحبنا يتسلى باحصاء ممتلكاته فى هذا المكان : مسدس وذخيرة ... والحاجة إليهما كانت لتقوية معنويته لا أكثر . وكان معه فروجان ، وشمامة ، وثلاث زجاجات من الشاى البارد .

وكان مقدراً ألا تستغرق الرحلة إلى شاطىء البحر أكثر من ست عشرة ساعة . وكان تشرشل قد حفظ مقدما وعن ظهر قلب أسماء المحطات التى يقف عليها القطار . وأخذ ينتبه بكل

حواسه إلى وقوف القطار ، ويسمى المحطات ويحصى المسافات .

ومضى النهار كله فى الانطلاق صوب الشرق . وعند ما هبط الليل كانوا قد وصلوا إلى محطة « وترفال بوفن » وهى فى منتصف الطريق . ووقف القطار على خط جانبى . ولم يعلم تشرشل كم سيقف . وهل سيعاود المسير أم ينتظر أياما ؟ فالنقل الحديدى فى الحرب لا يخضع لقواعد أو مواعيد . ولكنه كان يتسلى عامة ليله برسم الصور الوردية عما ينتظره إذا نجح فى الوصول إلى الشاطىء وعاد إلى الجيش وتابع حياته التى يهيم بها ويحبها حب عبادة . ولكنه من ناحية أخرى كان يتوقع تفتيشا دقيقا للعربات عند الحدود ، قبل أن ينتقل القطار من منطقة البوير إلى منطقة النفوذ البرتغالية .

وقرر أن ينام ، ولكنه خشى أن يغط فى نومه غطيطا يسمعه الحراس فى هذا الليل الساجى الساكن . ولكنه مع هذا أسلم نفسه للنعاس ، وليكن ما يكون ، ولم يوقظه إلا ضجيج القطار وعجيجه واستعداده للمسير .

وأخذ القطار يتابع رحلته ، يقف وينطلق ، وتصل إلى مسامع الأسير أصوات مختلفة فى كل مكان ، يصورها له الوهم بكل صورة ، فهذا تفتيش أقبل ، وهذه شبهة حلت ... وهذا ...

وهذا حتى تبدد الحقيقة كل هواجسه وهى ألا شىء هناك .

وأقبل ليل جديد ، ووقوف جديد ، ونوم جديد ، وخوف من الغطيط يزيد ، كلما قارب المسافر هدفه ، وازداد أمله فى النجاح المنشود .

وإذا صح حساب تشرشل ، وكانت مراقبته دقيقة ، فان القطار يكون قد وصل إلى محطة « كوماتى بورت » وهى خارج الحدود ، أى فى الممتلكات البرتغالية . واستبدت به رغبة جارفة أن يطل من مخبئه ، ولكنه قاومها مقاومة كادت تحطم أعصابه ، ومن يدرى فقد تكون قبل الحدود ، وقد يكون التفتيش الأخير والحاسم مقبلا ، أو هو يحدث الآن .

ولكنه وجد شقا صغيراً كان يتطلع منه من قبل ، فأخذ يراقب الخارج بدقة وانتباه شديدين . وتبين له فى حركة القطار أنه أصبح خارج الحدود فعلا .

وهنا جن تشرشل ... أخرج رأسه من بين بالات الصوف ، وأمسك مسدسه وأخذ يطلقه فى الهواء . ويضحك ويصيح ويصنع كل شىء ...

لقد أصبح حرا ...

٨

الحرية

كانت محطة الوصول هى ميناء « لورنسو ماركيز » ، وقد تسلل تشرشل من عربة الصوف لم يلحظه أحد ، وقذف بكل قوته ما تبقى معه من زاد ومؤونة ، ثم راض قدميه وساعديه على الحركة ، وأصلح من هندامه ، ورفع رأسه ، ونظر إلى ما حوله ، وكأنه ينظر إلى الدنيا كلها وقد جمعت أمامه .. ألم يصبح حرا ، أليس فى استطاعته أن يروح ويجىء ، ويسافر ويقيم ، ويقول ويسكت ، ويشبع ويجوع ، ويكتب ويخطب ، كما يود ، وحسبما تسيره رغبته الخاصة .. أجل إنها الحرية .

وسار فى الطريق ينظر نظرة المتحدى إلى كل شىء وكل حى ، حتى انتهى إلى القنصلية البريطانية ، وأبهجه مرأى العلم البريطانى مرفوعا عليها ، كأنما كان على موعد معه . ودخل إلى القنصلية ، وطلب من السكرتير مقابلة القنصل ، فانتهره السكرتير ، وطلب منه المجىء فى غد، إن كان يريد شيئا .

فصاح فيه تشرشل مغضبا محنقا ، إنه يريد أن يرى القنصل ، وأن يراه فورا ، ووصل الضجيج إلى القنصل نفسه ، فأقبل يستطلع النبأ بنفسه . وسأل هذا الطارق الملح عن اسمه . وما أن أعلن تشرشل اسمه حتى غرق فى الحفاوة والترحيب ، وحتى كان سيد المكان غير منازع ...

وبدأ تشرشل يعلم من أمره ما كان خافيا . فقد أذاعت الصحف الأنجليزية وغيرها ، نقلا عن سلطات الترنسفال الأنباء الآتية عن هرب الأسير .

بريتوريا — ١٣ ديسمبر : على الرغم من أن المستر تشرشل تمكن من تنفيذ خطة هربه ببراعة إلا أن فرصة إفلاته من الحدود قليلة .

بريتوريا — ١٤ ديسمبر : عرف أنه قد ألقى القبض على المستر ونستن تشرشل عند محطة سكة حديد كوماتى بورت

لورنز مركيز — ١٦ ديسمبر : ورد أن المستر تشرشل وجد عند محطة وترفال بوفن وألقى القبض عليه

لندن — ١٦ ديسمبر : بالإشارة إلى هرب المستر ونستن
تشرشل من بريتوريا ، يخشى أن
يلقى القبض عليه مرة أخرى قبل
مضى وقت طويل . وفى هذه الحالة
يحتمل إعدامه رميا بالرصاص

وفى هـذه الفترة أذاعت قيادة الفرقة الخامسة لقوات البوير منشورا وزعته فى أنحاء البلاد ، تحض فيه الأهالى على القبض على تشرشل . ومن يقدمه للسلطات حيا أوميتا ، يمنح جائزة مقدارها ٢٥ جنيها . وقد أثبتنا صورة هذا المنشور الطريف فى غير هـذا المكان .

وهنا فقط شعر تشرشل بمقدار الخطر الذى كان معرضا له ، وإنه لخطر جسيم اقشعرمنه جلده . وعلم أن الحظ خدمه ، والصدفة الحسنة كانت بين يديه ، وهى التى أخرجتـه من مأزق ، كانت كمية الاخفاق فيه تزيد على كمية النجاح بمئة ضعف !!

ولـكن فليزل أثار هذا كله بحمام ساخن ، وملابس نظيفة ، ووليمة فاخرة ، وورق وقلم ليرسل برقياته إلى كل مكان ...

وقد انتشر خبر وصوله كما تنتشر أعظم الأنباء شأنا . وأشيع

أن السلطات البرتغالية ، أو بعض الأهالى المعادين ، قد يتجمهرون لتسليم تشرشل إلى البوير ، فتجمعت الجالية الانجليزية فى القنصلية ، وهى مسلحة ، وجعلت نفسها فى حراسة تشرشل حتى يغادر المدينة وكانت هذه الشهامة العالية ، والمحبة الوطنية الكبيرة ، من أشد ماأثر فى نفس تشرشل .

ولم يدر هذا الشاب المغامر ، أنه قدعمل شيئا عظيما ، رفعه إلى مقام عال بين أبناء قومه ... فقد صور قصته أبدع تصوير ، وتناقلتها صحف انجلترا وصحف العالم ، وكان قلمه حيا ، ورائعا فى الوصف ، حتى لم يعد اثنان فى لندن ، أو بقية مدن الجزيرة لايتكلمان عن دافن نفسه فى عربة الأكياس الفارغة ، أوالمختبىء مع الفيران فى منجم فحم على عمق ٢٠٠ ياردة تحت الأرض .

وما أن غادر هذا الميناء ، إلى « دربان » الميناء الانجليزى ، حتى وجد نفسه بطلا . فقد استقبل كأنما فاز بانتصار عظيم . وللمرة الأولى تزين له ميناء بالأعلام ، وتعزف الموسيقى ، وتحتشد الجموع على الأرصفة . وأقبل اميرال الأسطول ، وقائد الجيش ، وعمدة المدينة يهنئونه ويحيون شجاعته . وما أن وصل إلى أيدى الجماهير ، حتى شعر أنه يكاد يتمزق قطعا من فرط ضغطها عليه ورغبة

كل فرد فى لمسه بيده . وحمل على الأعناق إلى منصة الساحة العامة فى المدينة ، ولم يقنع الناس بأقل من خطابة ، وكان لهم ما أرادوا .

و بعد قليل كان تشرشل يغرق فى سيل بعد سيل من البرقيات من جميع أنحاء العالم .

وذهب إلى مقر قيادته الأصلى ، ولم تكن الحماسة هناك أقل . ولكن الأنباء كانت محزنة .. ونعنى بها أنباء الحرب وما صارت إليه . فقد مرت الجيوش البريطانية بأسبوعها الأسود . وذلك أن الجنرال جاتاكر (Gatacre) هزم فى ستورمبرج . واللورد ميثين (Methuen) هزم فى ميجرز فونتين . والسر ردفرز بولر هزم فى كولنزو . وما يزال السر هوايت محاصرا فى ليدى سميث . وكانت نسبة القتلى والجرحى بين الجنود أعلى من أى نسبة أخرى عانتها الجيوش البريطانية منذ حرب القرم .

وقرر تشرشل أن يعود إلى الجيش ضابطا عاملا مع احتفاظه بصفته كمراسل حربى . وكانت وزارة الحربية بعد حملة السودان قررت منع الجمع بين العملين . ولكن شهرة تشرشل فى ذلك الوقت والحاجة الماسة إلى ضباط أقنعت السر بولر بأن يقبل على مضض مخالفة التعليمات ، وأن يعيده إلى الجيش .

وفى وسط موجة السخط على قيادات الجيش فى جنوب افريقيه التى كانت تتمثل فى كتابات الصحف ، وقلق البرلمان البريطانى ، نسمع صوت غليوم امبراطور المانيا ، يتدخل ناصحا بعمل شيء جدى لا يقاف هـذه الهزائم ، حتى لا تمتد الحركة إلى مستعمراته الافريقيـة ... واقترح بالذات تعيين اثنين من قواد الانجليز المشهورين لمباشرة الأعمـال العسكرية فى جنوب افريقيـا ، وهما اللورد روبرتس ، واللور كتشنر .

ويظهر أن محنـة تشرشل فى الأسر ، ثم تبدلها إلى نعمة ، كانت أيضا مصاحبة لمحنة الجيش الانجليزى الذى أخـذت هزائمه تقف ، ثم تتبدل إلى انتصارات . فقد عززت القوات البريطانية وأحكمت الخطط ، ولم يلبث حصار البوير أن رفع عن مدينـة ليدى سميث ، وأنقـذت حاميتها . وقابل السر بولر زميله السير جورج هوايت وأركان حربه . وكانت المقابلة مؤثرة ، وعلى مائدة الطعام والشراب غسل الجميع هموم شهورهم السود الماضيـة ، ولم يقرب تشرشل لحم الخيل الذى اضطرت الحامية إلى اتخاذه طعامها ، ولـكنه أقبل على لحم الثور الأخير الذى كان فى المدينـة ، والذى ضحى به تـكريما لهذه المناسبة .



تشرشل فوق ظهر البارجة برنس اوف ويلز بعد أن أعلن ميثاق الاطلنطى

وهكذا ارتد البوير عن مستعمرة الناتال . وفى نفس الوقت كان القائد العام الجديد السر روبرتس يزحف إلى الشمال بجموع كبيرة على أرض « أورانج الحرة » ، وكان تشرشل قد انتقل إلى هذا المعسكر الجديد ، يلتمس فيه أنباءه ، ويبحث فى طواياه عن مغامرة جديدة .

ولا نريد أن نطيل . فالحرب تستمر ، والجيش الانجليزى يستدير لجمهورية البوير من وراء ، ويمسك بتلابيب الترنسفال نفسها ، وما هو إلا أن تأخذ الحرب غايتها ، حتى تكون العاصمة « بريتوريا » نفسها قد هددت ، ثم طرقت أبوابها بعنف ، ثم يرى أهلها ــ وقد تخلى عنها الجيش المدافع ــ ضابطين بريطانيين ينهبان الأرض نهبا ، وهما يسألان عن المقر الجديد لمعسكر الاعتقال . وما أن يسمع أولهما ــ وهو ونستن تشرشل بنفسه ــ عن المكان حتى يعدو إليه عدوا شديدا ، وإذا هو بازاء حرس قوى من البوير . ولكنه لا يتردد . . . يشهر فى وجوههم السلاح ، ومن ورائهم الأسرى البريطانيون من فريق الضباط يحطمون الأبواب ، ويسلم الحرس سلاحه ، ولا يلبث أن يصبح الأسير آسارا ، والسجين سجانا . وسبحان مغير الأحوال .

وفى موجة من الفرح الغامر ، يعانق تشرشل زملاءه السابقين وتزدحم آلاف الأسئلة على أفواههم ، وتزدحم آلاف الاجابات والأنباء على لسانه . ويعود معهم إلى القائد العام مزهوا فخورا ، وهكذا تبدلت أيام البيت الحزين ، وتحطمت القيود والأغلال عن ساكنيه .. وما كان أحدهم قبل يدرى بكم يشترى هذه الساعة ، ولو خير بين أن يبقى أو يدفع نصف عمره ، لآثر أن يدفع ولا يريم فى الأسر ساعة . ولكن أما وقد جاء الفرج ، ومن أوسع الأبواب ، فلا ثمن ، وإنما هى الغنيمة الكبيرة ، والفرح بها ... وهى بعد قدر مقدور ... انه النصر ، ما أغلاه ، وما أحلاه ، وما أشهى جناه .

* * *

وانتهت مغامرة تشرشل الافريقية بسقوط بريتوريا ..

ولكن متاعب انجلترا فى جنوب افريقيا لم تنته . فما دامت الحرب المنظمة قد أخفقت ، فلتبدأ حرب العصابات . فما يزال وراء الخطوط وفى المناطق التى لم تتحرك مطلقا متسع للكر والفر . وبدأ بوتا ، وسمطس ، وهرتزدج وغيرهم يقودون المتحمسين من أنصارهم أينما وجد السبيل لازعاج الانجليز . .

وكان أجرأ الجميع ، وأشدهم جسارة « سمطس » ، الذى اتخذ مستعمرة الكاب نفسها مسرحا لنشاطه . وقد استمر الزعيم الافريقى الكبير — الذى تعرفه الدنيا كلها فى هذه الأيام — استمر عامين فى نشاط لا يفتر ، وعمل لا يكل ، ولا يفل له عزم . حتى تغيرت عقلية القهر والبطش التى كانت تسود وزارة المستعمرات البريطانية ، ودعت زعماء البوير — معترفة بهم — للجلوس على مائدة المفاوضات . وكان أن خلق اتحاد جنوب افريقيا الذى نما وازدهر ، وأصبح من عناصر النهوض ودعائم الحضارة فى القارة — التى كانت ظلماء — ولكن الفجر أطل عليها بأشعته البيضاء من الشمال ومن الجنوب على السواء

* * *

وكانت الحرب الافريقية بالذات سببا فى اجراء استفتاء جديد فى انجلترا عن طريق الانتخاب .

وأسرع تشرشل إلى دائرته ، وهو لايزال فى ملابسه الكاكية . ولذا أسمى انتخاباته بهذا الاسم : « الكاكية » ... ولم يحل دون نجاحه حائل . فظفر بالشهرة فى افريقية ، وظفر بتاج الشهرة ، وهو كرسى البرلمان فى انجلترا عن دائرة اولدهام . ولا نعلم إذا كان

صاحبناه فى منجم الفحم الترنسفالى قد أسعفاه بصوتيهما أم لا ولكن قصته معهما كانت من أهم أسباب نجاحه .

وبذا بدأ تشرشل السياسى البرلمانى دوره الجديد فى الحياة .

* * *

ولم تقدم المغامرة الافريقية لتشرشل هذا الكرسى الخطير ، بما أمامه من مستقبل نضر . ولكن قدمت له الثروة (١) التى كان ينشدها ...

فقد أخذ يطوف بالنوادى والمجامع — بناء على طلبها — يخطب ، ويحاضر عن قصصه وأنبائه . وكان الاقبال على سماعه شديدا . ومحاضراتهم هناك — لا كمحاضراتنا هنا — يحتفل بها معنويا وماديا . فحضورها ببطاقات ، وللبطاقات ثمن ، يغلو ويرخص حسب المناسبات .

ولم يكن دخل تشرشل فى المحاضرة الواحدة يقل عن مئة جنيه ... وكان يلقى أحيانا محاضرتين فى اليوم . وامتد نشاطه الخطابى من انجلترا إلى أمريكا ..

وما أن انتهت جولته حتى ارتفع رصيد مكاسبه إلى ١٠٫٠٠٠ جنيه وهى ثروة حسنة .

(١) لم يكن البرلمان البريطانى يدفع مكافآت مالية لأعضائه فى ذلك الوقت .

وفكر تشرشل فى استثمارها ، فأرسلها إلى صديق قديم لوالده من رجال المال والأعمال لكى يثمرها له . وكانت تفيء عليه دخلا طيبا . ولكن زواجه ونشاطه السياسى الواسع بعد حين أكل الثمرة والشجرة معا ... ولكن الحقل الخصب ، وهو تشرشل نفسه ، ما يزال فى أوج قوته . وما يزال قلمه ولسانه قادرين على أن يفيئا عليه أخلاف الرزق الموفور .

الشخص والشخصية

١

ديمقراطية أربعين عاما

وصلنا بتشرشل إلى كرسى البرلمان ، وفتحنا أمامه طريق الحياة السياسية يصعد سلمها ، ومن العسير علينا أن نتتبع هذا الصعود درجة درجة ، فنحن لم نقصد من كتابنا هـذا إلا أن نستعرض ترجمته فى أزهى أوقات حياته ، وهو وقت الشباب الملىء بالمغامرة ، والجرأة ، والحماسة للحياة وطيباتها . وما تبقى ، فهو أكثر مما ذهب ، تبقى من حياة تشرشل عمر طويل هو أربعون سـنة كاملة . ولـكنها عمر السياسى الذى كف عن الانطلاق فى الفضاء المفتوح ، وأخذ مكانه فى أروقة البرلمان ، وفى ردهات الأندية ، وفى حفلات القصور ، وأخيراً فى دوائر الانتخاب التى تنقل فى كثير منها ، نجح وأخفق ، ولـكنه كان الرجل البرلمانى كما ينبغى أن يكون ... لم تعد فى هـذه الحياة الجديدة

الألوان الزاهية الجذابة التى كانت له فى فجر حياته ، ولذا سنمر عليها سريعا ، ولا غرض لنا إلا أن نحدد معالم « الشخص » ، ونضعه فى إطار ، ثم نقف عند « الشخصية » ، وهى ما تعنينا ، وما قصدناه من هذا الكتاب كله .

عاد تشرشل من رحلته الأفريقية ، ودخل البرلمان وسط حماسة الناس له ، وإعجابهم بمغامراته وبخطبه ، وبهذه الآراء الفتية التى دافع عنها بحرارة وأهمها الحث على معاملة البوير بالحسنى .. البوير الذين أسروه ، والذين كادت الامبراطورية كلها تتداعى فى حربهم ... ذلك أنه كان يرى أن تحت جلد كل بويرى شخصية سيد ، لا عبد ... سيد جدير بالحياة لا بالاسترقاق .

ثم انتقل من الدفاع عن البوير إلى الدفاع عن حرية التجارة ، وبذا اصطدم بحزبه فى أهم نظرياته فى تنظيم الحياة الانجليزية . وأخذ تشرشل يقع فى الشباك الفسيحة التى ينصبها حوله السياسى القدير لويد جورج زعيم الأحرار ، والذى كان فى ذلك الوقت من أظهر السياسيين . ولم يلبث تشرشل أن مال إلى جانب الأحرار ، والتحق بحزبهم خالصا من حزب المحافظين الذى كان نجمه فى أفول بالنسبة للأحرار .

وهكذا إنتقل تشرشل من معسكر المحافظين إلى معسكره

الجديد . وما دارت الانتخابات الجديدة حتى نجح ، وبدأ عمله في الحكومة وكيلا لوزارة المستعمرات .

وكان ذلك عام ١٩٠٥ ، ولم يزد سنه عن واحد وثلاثين عاما وهي سن مبكرة للبدء في إشغال مناصب الحكومة الكبرى ، وتحمل مسؤولياتها الجسيمة ، ولا سيما أن وزارة المستعمرات في ذلك الوقت كانت تضع القواعـــد الراسخة لمستعمراتها وأشباه مستعمراتها في أفريقية وآسيا . فمصر والسودان وجنوب أفريقية والهنـد بمساحاتها الكبرى ... كلها كانت تحتاج إلى علاقات محددة مع الحكومة البريطانية . ومن هنا تبدو خطورة المنصب الذي تولاه . فاذا أضفنا إلى هذا كله حركات العنف التي كانت تضطرب بها إيرلندة من حين لآخر ، وجدنا أن تشرشل وضع في فوهة مدفع ، وأنه لم يعد منذ اليوم ذلك الشاب الكثير الوثبات ، الذي يتنقل بين قارات الدنيا وفوق محيطاتها كما يشتهي .

واستفتى الشعب الانجليزي في حكم الأحرار ، فأفتى بأنه يريد حكمهم ، وبذا توطد قدم تشرشل في منصبه الحكومي .

وكان نداء أفريقية يلح عليه في زيارتها وهو في منصبه الجديد فذهب الى أوغنده والخرطوم .

وفي سنة ١٩٠٨ كان تشرشل يقبل على حادثين عظيمين في

بحياته : أولهما أنه دعى للاشتراك فى مجلس الوزراء ، وكان الرئيس اسكويث الشهير ، وكان مزكى تشرشل الملك ادوارد السابع الذى يذكر القراء أنه أثنى على أول كتبه ثناء مستطابا .

أصبح تشرشل وزيرا ... وهـــذا حسن ، ولكن ما كان أحسن منه هو ثانى الحادثين العظيمين ، وهو أنه تزوج — وهو فى أوج نجاحه — المس كليمانتين هوزير « Klementine Hozier » ووصف زواجه بأنه قدم له كل السعادة التى ينشدها ... وقد وقفت إلى جواره شريكة حياته تمده بكل ما يحتاج إليه رجل وصل إلى أخطر المناصب ، من سداد رأى واتزان وراحة فى البيت .

ويحسن أن نشير هنا الى أم تشرشل التى كانت صديقته ، وما زالت ، فقد توفى عنها زوجها شابة كما ذكرنا ، وفى سنة ١٩٠٠ تزوجت أحد سراة الإنجليز وهو المستر كورنوالس وست . ولكنها لم تكف عن مد ابنها الحبيب بكل عونها ومؤازرتها ، حتى أنه فى أوقات مرضــه ، كانت تحتدم معارك الانتخاب فكانت تخوضها خطيبة باسمه ، داعية له ولحزبه ... مهما يكن هذا الحزب .

وهكذا وجد تشرشل فى حياته سيدتين ، كانتا النور الذى استضاء به منذ مولده ، وتدفأ بأشعته ... وهو نور الحنان والمعزة . حنان الأم ، ومعزة الزوج .

وهكذا وجد السياسي الذى يقاتل فى الخارج ، ولا يهدأ لحظة ، الجنة الناعمة فى بيته . ولكن عندما كان الأمر يحتاج إلى تجنيد كل القوى ، كان ربات الجنة وحورها ، يخرجن أيضا ويواجهن الزعازع والأعاصير ...

عاش تشرشل مع لويد جورج ، فكانا صديقين على تفاوت السن ، يشتركان فى كثير . فكلاهما كان شجاعا ، حيا ، علم نفسه بنفسه ، جلسا معا فى مجلس النواب ، وهما يجلسان الآن معا فى مجلس الوزراء .

وقد ظهرت مزايا تشرشل الخطيب فى هذه الفترة من حياته ، فكانت سلاحا أمضى فى يده من سلاح الكتابة . وعرف بين قومه بأنه خطيب بلاده الأول ، حتى أن لويد جورج ، أشهر خطباء الانجليز ، كان يتمتم بعد أن يسمع ونستن : ياجورج ... لاتكن مجنونا ، فما الفائدة من أن تحسد تشرشل على موهبته ! !

وفى الانتخابات التالية نجح تشرشل مرة أخرى فاختير وزيرا للداخلية وكان سنه ٣٥ عاما . وكان من عمله فى ذلك الوقت أن يكتب للملك ادوارد السابع ملخص مناقشات النواب ، ولكنه فى هذا العام غير عنوان رسائله ، وجعله باسم جورج الخامس ، الملك الجديد الذى تولى العرش بعد والده الراحل .

وأقبلت الحرب ، لتجده وزير البحرية البريطانية ، أو كما يسمى فى التعبير الانجليزى السيد الأول للأميرالية First Lord of Admiralty . وهو منصب خطير جداً ، بل هو أخطر عمل فى الحرب كلها يتولاه وزير . إذ أن الأسطول هو أقوى قبضة تضرب بها انجلترا ...

ولا نريد أن نذكر شيئا عن دور تشرشل فى الحرب الماضية فلهذا مكان خاص فى كتبنا المقبلة إن شاء الله . ولكن ما ان انتهت الحرب ، حتى كان الرأى العام يذكر دائما أن تشرشل وزير له ماض ، وأن حملة الدردنيل المشئومة ، ورأيه فى روسيا يقفان دائما بجواره ، هذا من يمين وهذا من شمال .

وفى سنة ١٩٢٢ لم يتمكن من دخول البرلمان ، فخرج ، وترك الحكم ، وأخذ نجم الأحرار يأفل ، بعد أن انفصم التعاون بينهم و بين المحافظين .

وهنا تبدأ أيام تشرشل السود.. تبدأ عزلته عن الرأى العام حتى ليكاد ينساه، ولكنه مايلبث أن يظهر فى ميدان التأليف بظهور أجزاء من كتابه الشهير الكبير «الأزمة العالمية» World Crisis ، الذى بدأ يؤرخ فيه لتلك الحرب ، مؤرخ صانع لها ، لا واقف بجوارها وعلى البعد منها . و بذا كانت كتبه التى شقت له الطريق

أول حياته ، هى سنده من جديد .. وإذا كانت جماهير الشعب تصيح فى وجهه إذا خطب ؛ فقد كانت تسكت ، وقد تعجب إذا كتب .

وبدا لتشرشل ألا خير فى أن يعلق مستقبله بنجم الأحرار الآفل . ولا سيما أنه ترك حزبه ، وخلع ثوب المحافظين لأن حرية التجارة كانت حجته .. أما وقد مال المحافظون إلى هذا الرأى ، فلا بأس من أن تتقارب الخطوات التى تفصله عنهم .

وكثرت هزائمه فى دوائر الانتخاب ، ولم يعد هذا المكان الحبيب إلى نفسه يسمع صوته المجلجل . ولكن المحافظين كانوا يلحظونه بدقة كما يلحظهم . ولما رشح نفسه مستقلا فى إحدى الدوائر ، تجمعوا لنصرته ومؤازرته بخطبائهم المشهورين أمثال بلفور وبركنهد واوستن تشمبرلن وروزمير . وقد سقط مرة أخرى ولكنه كان قريبا جدا من النجاح ، ومعنى هذا أن الرأى العام بدأ يعود إلى مؤازرته من جديد .

وفى نهاية عام ١٩٢٤ ، كان قد جاوز الخمسين ، وخشى أن يكون صحيحا ، ماوصف به هو ، وما وصف به صديقه القديم لويد جورج ، وهو أن تشرشل أشبه بهرم نسيه الناس . وأن

صاحبه لا يعدو أن يكون قوس نصر يراه المارة فى طريقهم ، لكنه لا ينفع ، ولا يؤذى ..

وما لبث الحظ أن مد له يده .. فقد نجح المحافظون فى الانتخابات ودخل فى وزارة بلدوين وزيرا للمالية ، فى نفس المكان الذى شغله أبوه قبل وفاته . ولم تطل سنواته فى الحكم هذه المرة لخلاف بينه و بين زملائه ...

ولكنه لم ينس هذه المرة ، فقد حدث اضراب العمال المشهور فى انجلترا سنة ١٩٢٦ ورأى المحافظون أن يستعينوا بمقدرة تشرشل الكتابية فأسندوا إليه الاشراف على تحرير المورننج بوست الشهيرة ، ومجلة البرتش جازيت ، لتكون وسيلة الدعاية ، إذ لم تكن الاذاعة اللاسلكية قد انتشرت .

وقد ذكر عن هذه الحقبة من حياته ، أن الجريدة العظيمة بمكاتبها وماكيناتها ، تشبه عنده بارجة عظيمة تدور آلاتها ، وتشبه فى نفس الوقت دائرة انتخابية تحتدم فيها المعركة .

كان دائما ضد الاشتراكية . فلما تولى العمال الحكم فى سنة ١٩٢٩ سافر إلى كندا يرسم جبالها !!...

ومضت حياته يشبه بعضها بعضا ، إلا من كتبه التى ظلت

تظهر ، أو يعاد طبعها ، من أمثال كتابه عن أبيه (ظهر أول مرة سنة ١٩٠٥) وعن دوق مارلبراه جده العظيم ، وكتابه آراء ومغامرات Thoughts & Adventures ، وكتابه عن معاصرين عظماء . وتعليقاته وكتاباته فى الصحف التى ظهرت فى كتاب تحت اسم (خطوة بعد خطوة Step by Step) . وكتابه عن تاريخ حياته المبكر الذى اعتمدنا عليه فى فصول سابقة .

ولكن فى سنة ١٩٣٦ حدثت قارعة قفزت باسم تشرشل الى السطح مرة أخرى . فقد بلغت أزمة زواج الملك ادوارد الثامن أشدها ، وتمسك بلدوين بتخلى الملك عن العرش وتمسك تشرشل بأن يعارض رئيس حزبه ويؤيد الملك . وقبل أن يعقد البرلمان البريطانى للفصل فى الموضوع استأذن الملك ادوارد الثامن رئيس وزرائه فى أن يرى تشرشل ويتحدث معه ، فوافق الرئيس ... وقد خسر تشرشل المعركة خسرانا مبينا ، وصفته التيمس بأنه يوم غير طيب للمستر تشرشل . ولما ذهب لوداع الملك عاد ليكتب مؤيدا الملك والملكة الجديدين .

وهنا تتجلى لمحة من أصول الديمقراطية البريطانية . فقد رأى الملك أن واجبه ، كملك دستورى ، مختلف مع رئيس وزرائه، أن

بحكم الى برلمان من حزب الرئيس ، ولا يجرى استفتاء عاما مع أن الموضوع كان الفصل فى هل يبقى الملك أم يذهب ؟ وكانت هناك دلائل تدل على أن عامة الشعب لا ترى فى مسلك الملك ما يعيبه اذا تزوج كما يريد . فلما أصدر البرلمان قراره ، ذهب إدوارد الثامن ، وأغلق الباب وراءه بكل هدوء ووقار .

ونرى أيضا هـذا الملك — على ما كان عليه من شباب واندفاع — لم يتجاوز أيضا أدق قواعد المراسم الديمقراطية ، فاستأذن رئيس وزرائه فى أن يرى نائبا عرف أنه سيدافع عن قضية الملك فى المجلس . فوافق بلدوين وما كان له أن يرفض . فهـذا طلب عادل وهو من حق عظيم البلاد وأكبر رأس فيها ، ولكنه سلك الى هـذا الحق ، سبيل مجاملة خليقة بالتاج البريطانى .

وهذه المعانى الخفية ، التى تدل على تأصل الروح الديمقراطية فى نفسية طبقتى الحكام والمحكومين فى انجلترا تتجلى أيضا فى القصة التالية ، التى نسوقها على سبيل الاستطراد ، وان لم تكن فى صلب الموضوع ...

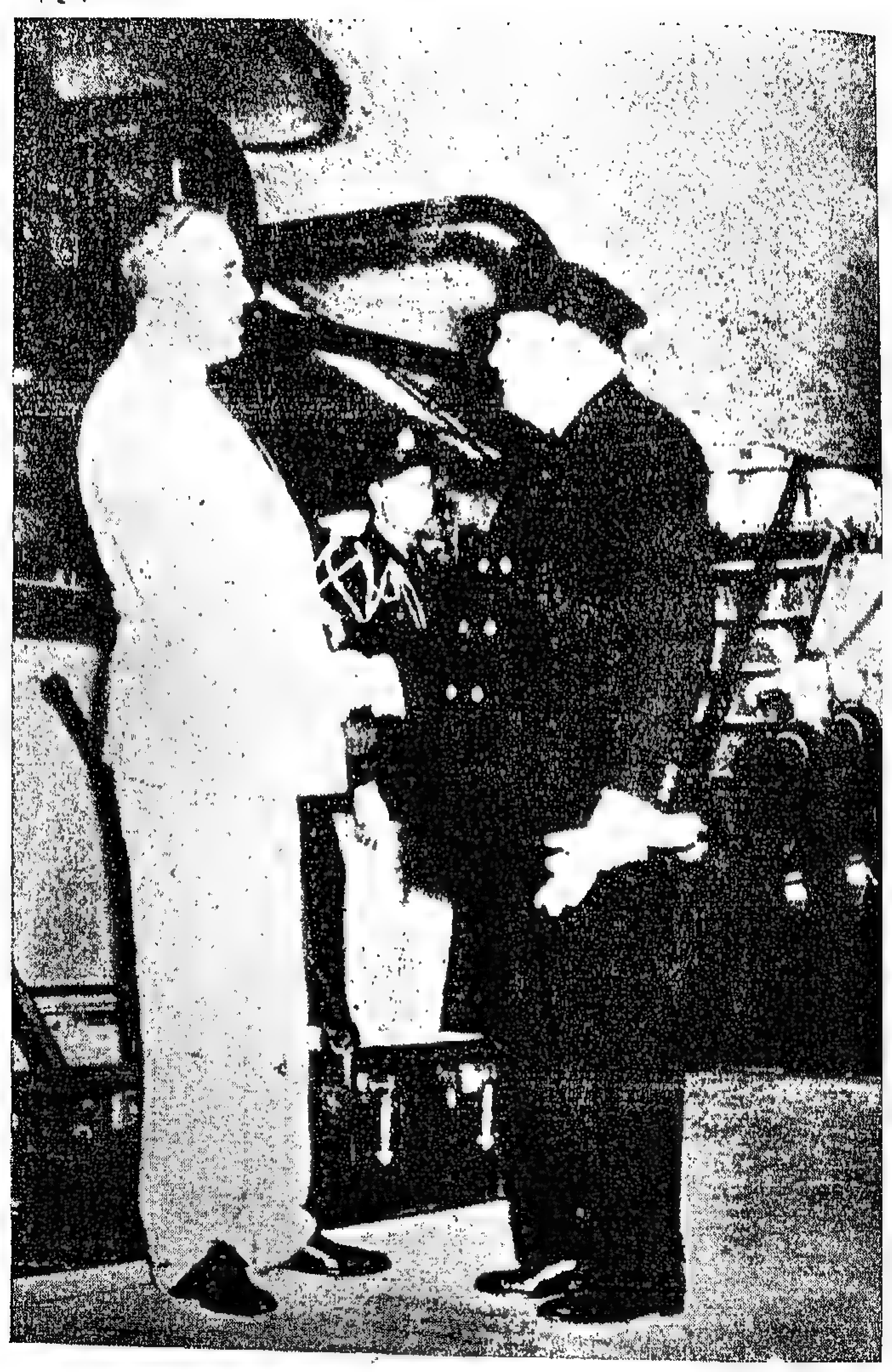
فقد حدث أن تشرف أحد الوزراء الانجليز بزيارة الملك فى بكنجهام بلاس لعرض مشروع عام عليه . ولما خرج الوزير سأله

أحد الصحفيين عن المقابلة فأجاب بأن الملك سر من المشروع . وفى اليوم التالى ظهرت جميع الصحف تنكر على الوزير تصريحه ، وتقول له انه جاوز حده ، واعتدى على حق الدستور والبرلمان ، لأن الملك « يجب » أن يكون مسرورا « دائما » من كل قانون يوافق عليه البرلمان .

مضت تلك القـــارعة على غير ما اشتهى تشرشل ، ولكنها شرفته كمعارض .

و بدأت القارعة الجديدة ، وهى أن صوت الطبول العالية التى أخذت تقرعها النازية ، كانت تدوى فى أذنى تشرشل أكثر من أى انجليزى آخر . فراح يزأر فى كل مكان ، ويلهب حماسة قومه لكى يتأهبوا فالحرب قادمة ، والنـازية تستعد للثأر من اذلال فرسايل ، باذلال آخر تذيقه لأعدائها الذين انتصروا عليها .

ولكن الانجليز خافوا من تشرشل ، فالحرب كريهة مُرة المذاق ، ولا يحبها أحد من النـاس ، ولكن سياسة ميونخ ، ومسكنات تشمبرلن لم تفد ، فكانت الحرب ، وكان أول رجل أراد تشمبرلن أن يعتمد عليـه لكى يقول للدنيا إنه يحارب حقا ، هو تشرشل ومعه أيدن ...



روزفلت يودع تشرشل بعد ان أذيع ميثاق الاطلنطي

فعاد إلى الأسطول ليكون وزيره أو السيد الأول فيه . ثم ما لبثت عجلة الحرب أن دارت لتطحن أماني الانجليز طحنا ، وتهددهم أعظم تهديد واجهوه في تاريخهم .. ولم يكن بد من أن تستبدل انجلترا وزيرها الأول الذي يحارب بسبابته ، بآخر يحارب بقبضته وكان رجلهم هو تشرشل .

٢

الصيف المخيف

في أبريل سنة ١٩٤٠ أغار هتلر على الدانمرك

» » » » » النروج

في مايو سنة ١٩٤٠ » » » لكسمبورج

» » » » » هولندا

» » » » » بلجيكا

» » » » » فرنسا

وفي شهر يونيو من هذا العام — وهو ١٩٤٠ — حل بمقر رياسة الوزارة البريطانية (١٠ شارع دوننج ستريت) أعظم كرب شهدته هذه الدار . فقد توالت برقيات اللورد جورت القائد العام الانجليزي في أوربا ، أنه لم تعد هناك فائدة من المقاومة . وتحت وطأة أحزان ومخاوف من مستقبل مرير كلفت وزارة الحرب وزير الحربية « المستر ايدن » أن يبرق إلى اللورد جورت بتسليم جيشه للألمان ، إذا لم تكن هناك وسيلة للافلات عبر القنال

من فرق البانزر الهتلرية . وكان معنى هذه البرقية أن يصفد هتلر فى أغلال الأسر ثلث مليون من خلاصة الشبيبة البريطانية ، وأن يجرد الجزيرة البريطانية من معظم عدة دفاعها ، أى أنه يحطم أسنانها ويقلم أظافرها . وجاء الرد من اللورد جورت بأن ثمة بمر للافلات من المخالب الفولاذية التى تدق جسم الجيش ، وأن على انجلترا أن تعد عند دنكرك السفن . وذكر القائد أنه سيتخلى عن كل معدات الحرب ، ويجاهد لتخليص جنود الجيش بثيابهم إن استطاع ...

وانتقلت صيحة القائد S.O.S. ، أى انقذوا أرواحنا ، من البرقية السرية ، إلى الأسطول وآلاف سفن التجارة والصيد فى خلجان الجزيرة البريطانية . فهرعت كلها فى استبسال عظيم ، لكى تخوض لجة اللهب التى نشرها هتلر فوق القنال ، ثم تعود محملة بأنباء الجيش المنهزم ، وقد صنعت هذه السفن — الكبيرة والصغيرة — الأعاجيب ، كما صنعت بها الأعاجيب . فقد أمر القواد الألمان أن تطير محلقاتهم الضخمة فوق الجزيرة تصب المازوت على سطح الماء بين الأرضين : أرض فرنسا ، وأرض انجلترا ، وأن تطلق على هذا السائل الداكن قذائف محرقة ، فيتحول سطح المانش إلى لجة من اللهب ، لا لجة من الماء . وهذا كله غير السيل

المنهمر من الرصاص والقنابل التى كانت تصب على السفن الجارية فى وسط هذا الموت الأحمر .

ومع كل هذا نجت الحملة البريطانية إلا أقلها ، بعد أن كابد أفرادها من الهول ما يزلزل الجبال الراسيات .

ونظر تشرشل رائد السفينة البريطانية الأول — فاذا البحر حوله يتفجر بالغضب ، ويتطاير منه الخطر ... فقد وقف هتلر بقدميه على سواحل أوربا الغربية من القطب الشمالى إلى حدود جبال البرانس ، وأخذ يشمر ذراعيه ، ويهىء ساقيه ، و يتلمظ بشفتيه لكى يضيف إلى فرائسه هذه الفريسة الشهية التى عز منالها من قبل على كل الغزاة ...

وتذكر تشرشل فى ساعات الهول ، أسابيع مخيفة مرت على الجزيرة من قبل . تذكر « ألفا » قائد الأرمادا عندما جاء يطرق أبواب انجلترا سنة ١٥٨٨ ، وتذكر أنه لو لم يُهزم هذا الأسطول الجبار فى المانش ، ولو تمكن جنوده من النزول إلى البر لوجدوا سواعد انجليزية قوية كانت مسلحة حسب آخر طراز ذلك العصر وقد تأهبت للقاء الأسبان بحرارة ...

وتذكر تشرشل أنه لو لم يتمكن نلسن من تحطيم سفن نابليون فى الطرف الأغر ، واستطاع قائد « الجيش الكبير » أن يجتاز

المانش لوجد الانجليز مستعدين له ، ومتأهبين لمنازلته فى كل شبر على الشاطىء المتعرج . ولهذا لم يكن عام ١٨٠٥ ، عاما أسود على الشعب البريطانى ، لأنه كان يراقب مغامرات نابليون ويتأهب ليوم قد يقع فى نطاق هذه المغامرات .

أما صيف سنة ١٩٤٠ ، فهو يختلف عن هذين التاريخين اختلافا عظيما . فقد صنع هتلر ما لم يصنعه ألفا ، وما لم يصنعه نابليون . إنه جرد بريطانيا من سلاحها . ولو أنه نشر مظلة من طائراته ، ونقل جنوده وفولاذه إلى انجلترا لحلت بالجزيرة كارثة محققة . .

ما ذا يصنع تشرشل ؟ إنه ينظر إلى قومه ، فيجد أبصارهم جميعاً ، رجالهم ونساءهم ، صغارهم وكبارهم ، قد رمقته فى قلق تنتظر صنيعه . . وتكلم تشرشل فاستمد شعبه منه التجلد ، واستمد هو بدوره الشجاعة على مجابهة الخطر العظيم .

تكلم تشرشل مع قومه قائلا : « بعد كل شىء لدينا الأسطول ويظهر أن بعض الناس نسىَ الأسطول فيجب أن نذكرهم به » .

ثم تكلم مرة ثانية : « عما قريب سيصب العدو علينا جام غضبه بكل ما لديه من قوة . وهتلر يعلم أنه إذا أراد أن يكسب هذه الحرب ، فيجب عليه أن يهزمنا فى هذه الجزيرة . ولكننا

إذا صمدنا له ، فقد تتحرر أوربا ، وتتطلع الدنيا بأسرها إلى ساعات مليئة بالراحة والهناءة ... فلنضطلع بهذا الواجب ، وبعد ألف سنة سيقول البريطانيون أن ساعتنا هذه هي أمجد ما مر في تاريخهم » .

وهكذا فقد تشرشل السلاح ، وحتى تجدده المصانع في أيدي الجنود ، عوضهم عنهم بخطب من نار ، يلهب حماستهم ، ويندبهم لواجباتهم ، ويذكرهم بأن مدينة لندن بمساحتها الشاسعة تستطيع وحدها أن تلتهم جيشاً عرمرما من أعدائها . وهكذا قرر ، قبل ستالين ، أن العواصم لا تسلم ، ولكن تحارب إلى آخر حجر يمكن أن يحمي مقاتلاً . فقد هزم فرنسا أنها خافت على باريس من الدمار فدمرت البلاد كلها روحا ومادة ، وليس رجلا من لا يستفيد من أخطاء الغير .

وما هو إلا أيسر الوقت حتى حولت خطب تشرشل الفلول إلى جيوش ، وحتى أخذت أعصاب هتلر تتراخى ، وأقدامه تتردد وأخيراً قرر أن يعدل عن التهام الانجليز إلى التهام الروس ... فقد راجع تقرير حرب الروس الأولى في فنلندا ، فوجد بلاد ستالين أسهل منالا من بلاد تشرشل . ولا سيما أن طائرات جورنج لم تسكت هذا الرجل العنيد « تشرشل » ، أو تخفت صوته ، وما زالت ساعة

البج بن تدق ، لتذكر الدنيا بأن لنـدن أوسع من أن تحطمها غارات شهرين ...

وما أن ولى هتلر قفاه ، ليجرب تجربته فى البلقان ، ثم فى روسيا ، حتى كانت انجلترا تعمل ولا تضيع دقيقة واحدة ...

وهؤلاء نحن نذكر أسابيع الصـيف المخيف فى انجلترا ، ثم ننظـر إلى حاضر الحرب ، فنرى هـذه الجزيرة ، وقد عبأت قوات عظيمـــة ، مع حلفائها لتتخطى هى المـانش ، والبحر المتوسط ، وخليج بسكاى ، وتدق قلعـة هتلر فتهتز من الأساس .

* * *

كان وليم بت الوزير الانجليزى الشهير يقـول : « إنه لا يمكن أن يوجد رجل واحد يستطيع أن ينقـذ انجلترا » إيمانا منـه بأن الانجليز شـعب جماعى ، لا مجال لأن يوجد فيـه رجل واحـد يقوى على عمـل لا يقوى عليه آخرون من أبناء جنسه .

ولـكن انجلترا كلمـا تلفتت الى صيف سـنة ١٩٤٠

ستذكر أن رجلا وشيئا أنقـذاها . أما الرجل ، فهـو ونستن تشرشل ، وأما الشيء ، فهو الأسطول البريطانى . أولهما بخطبه وحماسـته وتفاؤله ، وقدرته على العمـل التى لا تنفد . وثانيهما بمدافعه وقوته وعلمه فى البحار الذى ارتفع وتفرد بالسيادة قرونا ذوات عدد .

٣

وحدة النيل

عندما ساقت الحوادث انجلترا إلى مصر ، فى عهد جلادستون ، كان من أكبر معارضى سياسته اللورد راندولف تشرشل ، والد ونستن تشرشل الذى رأى أن انجلترا تشغل نفسها بما لا ينبغى أن تضيع فيه وقتها . وانه لا داعى مطلقا لأن تضيف إلى اعبائها عبئا جديدا هو أن تتدخل بين أمير شرقى (توفيق) ، و بين أحد قواد جيشه (عرابى) .

وكان ونستن يسمع هذا الرأى و يعرفه عن أبيه . فلما تولى الأب من الحياة ، وبدأت رحلة فتاه فيها ، تغيرت الحوادث ، وتبدلت ، وظهر للمحافظين أن انجلترا فى الشرق الأوسط قد كشفت عن عنقها الذى يصل الرأس البريطانى بالجسد الأسيوى ، و بعض الجسد الافريقى ، وكان هذا العنق مطمورا تحت أنقاض الامبراطورية العثمانية !

ثم بدأت مغامرة تشرشل الافريقية فى النيل ، وفى جنوب

إفريقية . وكان ميالا كل الميل إلى التسامح ، وعدم الأخذ بسياسة الاستعمار . وقد رأينا كيف خالف حزبه ، وحكومته فى معاملة البوير ، حتى ليؤثر عنه أنه قال : لو كنت من البوير لحاربت حربهم ، ولشاركت فى كرهم وفرهم ...

وفى كتابه الشهير عن السودان ، أكد بما لا يحتاج إلى بيان أن فكرة فصل مصر عن السودان مضادة لكل طبيعة ، وكل نظام .

فهو مرة يشبه وادى النيل بغواص فى قاع البحر يستمد حياته من أنبوبة الهواء التى تصله بما فوق الماء ، إذا قطعت مات الغواص من فوره ...

ومرة أخرى — وهو هنا أبلغ وأقوى تعبيرا — يشبه النيل بشجرة نخيل يحاكى (جريدها) وسعفها الدلتا التى يكونها فرعا النيل وترعه العديدة . وإذا تجاوزنا النظر عن انحناء النهر العظيم فى نقطة أو نقطتين ، فانه يشبه ساق شجرة النخيل حتى تبدأ جذوره فى السودان تمتد بامتداد هذه الفروع الكثيرة التى تغذى الساق بالماء ، والماء هو حياة الدلتا .

ويستطرد فيقول :

« فائدة مصر واضحة . ولكن مصر لا تستفيد وحدها من النهر . إن المنافع من هذا الارتباط بين مصر والسودان مشتركة بينهما . ذلك انه إذا كان السودان جزءا متمما لمصر بحكم الطبيعة وجغرافية الأرض ، فان السودان يعتمد فى تطوره على مصر اعتمادا جوهريا » .

وذكر أيضا أن النفقات الكثيرة التى أنفقتها مصر لاستعادة السودان ، وضحاياها فيه ، كانت لازمة ، لتوحيد أرض كان لا يمكن أن يبقى جزءاها منفصلين . ولجمع شعبين يرتبط مستقبل أبنائهما معا ، ويمتزجان امتزاجا تاما .

وتشرشل لم يبخس المصريين حقهم فى حرب السودان ، فقد أشاد أكثر من مرة بصفات الشجاعة والحماسة فى الهجوم التى أبدتها الوحدات المصرية تحت قيادة كتشنر[١] .

* * *

ولكن تشرشل محافظ . وهو لا يرى رأى أبيه فى أن تدخل جلادستون فى أمر مصر كان فلتة أو غلطة . بل يقرر أن انجلترا

(١) دون تشرشل آراءه هذه عام ١٨٩٩ فى كتاب The River War وآخر طبعة منه ظهرت فى أثناء هذه الحرب ، و لم يظهر فيها أن تشرشل عدل عما دونه منذ ٤٥ عاما .

محتاجة إلى مصر ، وأن مصر محتاجة إلى انجلترا . وأنه لا سبيل إلى تحطيم الصلة التى بينهما الا بقوة تطرد بريطانيا من الشرق الأوسط ، أو حرب عظيمة تصل أيضا الى هذه النتيجة .

وقد عد تشرشل فى بعض الأوقات من غلاة المستعمرين ، وكلما تقدم به العمر ، زاد حرصه على مغانم بريطانيا التى كسبتها فى القرن الماضى . ولكن تشرشل ككل إنسان يتغير ، وهو نفسه قد تقلب بين مبادىء الأحرار ، و بين مبادىء المحافظين الذين يتزعمهم اليوم ، لأنه كان يرى مصلحة قومه فى هذا الرأى ، أو فى ذاك .

وهل هناك ما هو أدل على ميله إلى الاعتدال ، أو أن أطراف عمره أى شبابه وشيخوخته قد أخذت تتقارب ، من ميثاق الاطلنطى . وسنكتب كلمة عن هذا الميثاق ، ونرى اذا كان مناورة من مناورات الحرب ، أو انه عقيدة انتهى إليها الرئيس الانجليزى ، مع رئيس الامريكيين .

٤

ميثاق الأطلنطى

فى ١٧ يوليو سنة ١٩٤١ هبطت فى إحدى مطارات انجلترا مجموعة قوية من قاذفات القنابل الأمريكية ، ولم تكن هـذه الأسراب الطائرة تعبر المحيط لتطبيق قانون الاعارة والتأجير فقط ولكنها عبرته أيضا حاملة مطبق هذا القانون والرجل الأول المسئول عنه فى أمريكا وهو المستر هارى هبكنز .

وفى نهاية هذا الشهر وجهت للضيف الأمريكى الكبير دعوة هى الأولى من نوعها فى تاريخ بريطانيا كله ، ومؤداها أن يحضر المستر هبكنز جلسة مجلس الحرب فى دوننج ستريت رقم ١٠ .

و بعد الاجتماع خرج تشرشل مع زائره وسارا فى حديقة دار الرياسة ، سيرا وئيداً ، لكى يتما حديثهما عن سير الحرب ، ودور أميركا الذى يجب أن تؤديه بعد تطبيق قانون الاعارة والتأجير. وهنا ألقى الضيف سؤالا على الرئيس البريطانى :

— ألا ترى من الخير يا مستر تشرشل أن تقابل الرئيس روزفلت وتتبادلان الرأى سويا ؟ فهذا يعاون على أن يتكامل اقتناع

الرجل الأول فى أميركا بخطط انجلترا المقبلة ، وأملها فى الحرب والسلم جميعا ...

وكانت الفكرة خلابة وطريفة ، وأحسن المستر هو يكنز اختيار الفرصة ، واختيار الرجل ، فلم يكن أحب إلى تشرشل من هذه المغامرة ـ فى أحرج أوقات انجلترا والعالم ...

فرحب بالفكرة فى غير تردد ، وكانت الأولى من نوعها فى تاريخ انجلترا أيضا ، إذ لم يسبق أن انتقل رئيس وزارة من لندن عبر المحيط أو فى رحلة نائية و بلاده فى حرب ... وأى حرب هذه التى تخوضها انجلترا اليوم ... إنها معركة الأرض والهواء والماء ، التى يستخدم فيها كل شىء للقتل والتدمير حتى الذر !

ولم يكن غريبا أن يرحل تشرشل عن لندن لفترة من الزمن فهذا غياب لن يستلفت نظر أحد . أما إذا غاب روزفلت عن واشنطن ، فان كل أمريكى سيعلم فى اليوم التالى أين يذهب ، أو بالقليل يسأل و يلح فى السؤال ، وذلك لطبيعة الفرق بين الشعبين الانجليزى والأمريكى ...

وأراد تشرشل أن يعبر عن كامل ثقته بالأسطول البريطانى ، وأن يذكر العالم مرة أخرى أن هذا المارد الجبار لا يزال سيد

البحار، فاختار السفر بحراً ، وعلى بارجة من بوارج صاحب الجلالة البريطانية ، وهى البرنس أوف ويلز[١] .

وتمت الرحلة فى ابتدائها وسط تكتم بالغ ، وحذر لا يدانيه حذر ، ودعى لمرافقة تشرشل فى رحلته عدد من رجال الحرب البريطانيين ومثلهم من الكتاب والصحفيين . فقد علموا أنهم مسافرون فى رحلة يصنع فيها تاريخ العالم الحديث ... ولكنهم لم يعلموا أين ولا كيف ؟ ولكنهم مع هذا كانوا شديدى الإحساس بما وراء هذه المغامرة عند ما نقل مع معدات الرحلة صندوق كبير من وزارة البحرية ، تبين أنه يحتوى على الكرة الأرضية مجسدة .

وتمتم كل واحد : إذن ، فنحن نحمل معنا الكرة الأرضية !

وفى أثناء الرحلة كان قبطان السفينة فى هم مقيم ، فهو دائم الحذر، لا تكف أوامره عن الصدور ، ففوق أن السفينة « البرنس أوف ويلز » فى ذاتها صيد ثمين جداً ، إلا أنها تكون أثمن صيد

---

(١) غرقت هذه الباخرة الكبيرة بعد قليل فى معركة سنغافورة مع زميلتها ريلس ، ورثتها الصحف الانجليزية رثاء نستأهله عند ما قالت : قطع رأس أسطولنا فى مياه الشرق الأقصى .

فى هذه الحرب اذا تغلبت عليها الغواصات، وهى تقل تشرشل وسادة الحرب البريطانيين جميعا !

ولكن تشرشل ورجاله لم يكونوا كذلك . فقد عكفوا على مشاهدة شريط سينما للوريل وهاردى ، وضحك له تشرشل حتى كادت قهقهته تسمع فى أنحاء السفينة كلها . وكان يغير ملابسه ، ويرتدى ثوب المساء ، أو العشاء كأنما هو فى أكثر أوقات السلم يسراً وسهولة على الناس ... مع أنه كان يعلم أنه يجتاز خط الغواصات الألمانية .

وقد صدق ه . مرتون الكاتب المعروف الذى رافق تشرشل فى رحلته عند ما قال إن من مزايا الانجليزى أنه لا يلبث أن يحيل كل شىء غريب الى شىء مألوف . وأنه لا ينتهز الفرص لكى يعيش فى وسط « الدرامات » . ويمكن تصور هذه الطبيعة على حقيقتها لو وضعنا مكان تشرشل وصحبه هتلر وروبنتروب وجوبلز وكانوا مسافرين على سطح الماء فى مثل هذه الظروف ... هل كان يمكن أن تطالع منهم السفينة ما طالعته من ركابها هؤلاء ؟ وأجاب الكاتب على سؤاله : أحسب أن الأمر يختلف !

ومما قصه مؤرخ هذه الرحلة الشهيرة ، أن تشرشل لم يستطع النوم فى غرفته لأن ضجيج الماكينات كان يزعجه . وطلب أن



تشرشل وزوجه في التاسعة والستين من عمره

ينتقل الى غرفة أميرال البحر فوق جسر السفينة . فقد كانت البرنس أوف ويلز من سفن القيادة . وأقبل ضابط فتى يقود رئيس الوزارة الشيخ فى الممرات الضيقة ويساعده بامساك ذراعه على صعود الدرجات العمودية الحديدية الى أعلى السفينة ولكن تشرشل صاح به فى الظلام الدامس :

— أيها الشاب ... هل تظن أنى لم أتسلق مثل هذا السلم فى حياتى ؟

ثم اختطف ذراعه ونفسه ، وأخذ يتسلق فى خفة شيطان . وفى كل ثانية كان الضابط الشاب يتوقع أن يسمع صيحة من تشرشل تدل على أن رأسه اصطدمت بقطعة من قطع الحديد البارزة من الجوانب . والتى لم تترك رأسا فى السفينة الا صكتها . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وصعد تشرشل الى جسر السفينة العالى حيث تصفر الريح ، ليقضى الليل ، وهو يغط فى نوم عميق ! .

وتقابل مع روزفلت فى خليج نيوفوندلاند ، ودار بينهما من الحديث ما دار . ثم أرسلت القرارات بالشفرة الى واشنطن ولندن وجاء الرد من العاصمتين بالموافقة ، وكانت القرارات « ميثاق الاطلنطى » .

ويحسب الناس أن هذا الميثاق كتب بالخط المستدير على

الورق الغالى ، وختم بالشمع الأحمر ، وربط بأشرطة الحرير . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فقد كانت اذاعته من الرئيسين عن طريق الأثير الى آذان جميع أبناء الدنيا وتلتها عبارات التأكيد بأن محور السياسة العالمية سيدور على هذا الميثاق العظيم المعنى ، القليل العبارة ...

وما جدوى أن يكتب الميثاق ويزخرف ، وتنشر صوره ، وتهال عليه الورود والزهور اليانعات ، فاذا امتحن وجدت قصاصات الورق المهمل أغلى منه ثمنا ، وجفت وروده وزهوره كأنها وضعت على نعش !

ان تجارب الحرب الماضية ، وتجارب الصلح الماضى ، وما حدث لولسن وشروطه الأربعة عشر، وما حدث من ولسن ومن هذه الشروط بالذات ... كل هذا أقنع شعوب الدنيا كلها بأن تهمل الوعود ، وأن تكترث للعمل بها . وأقنع مصر بصفة خاصة بأن تكون أكثر حرصا وأكثر حذراً .

فهل يكون نصيب ميثاق الاطنطى ، مثل نصيب شروط ويلسن ... ؟

أما أنا فأميل الى التفاؤل هذه المرة ، وأرجح ترجيحا قويا

أن هذا الميثاق سيكون أساسا سليما للصلات الدولية بين الشعوب الغربية والشرقية على السواء .

أما من أين استمد هذا الرأى ، فالى القراء مصادره :

فقبل كل شيء ، اذا انتهك هـذا الميثاق ولم يطبق تطبيقا شاملا ، فمرجع هذا الى الدولتين اللتين وضعتاه ، وهما أمريكا وانجلترا .

أما أمريكا ، فلا تزال تحس بمرارة الخيبة التى صادفتها فى مؤتمر فرسايل الماضى . ويؤكد رجالها جميعا : روزفلت ومعارضوه أن أمريكا يجب أن تكسب السلم — وتعبىء له من القوة ما يعادل قوتها التى تكسب بها الحرب ... تقول هذا الكلام ومن ورائها أخطاءها الماضية وأخطاء غيرها . وهذه كلها دروس ، وما كان لأمريكا أن تضحى بهذه التضحيات البالغة فى حرب شرقت وغربت وعلت وهبطت لكى تصل فى النهاية الى نتيجة مخزية ، وهى أن تعتدى على الحرية أو تعاون على انتهاكها ، أو أن تعتدى على ثروات العالم أو تعاون على نهبها ، أن تعيش الشعوب الصغيرة بجوارها وهى ترتجف من الخوف على أمنها ودينها أو مقدساتها جميعا !

وأمريكا صرحت بالأمس القريب ، وبكل لسان ، أنها ستحارب لطرد اليابان من الفلبين ، ثم تمنح هذه الجزر الكبيرة استقلالها

وكانت الفلبين هى المستعمرة الأمريكية الوحيدة ، وكانت — لولا هذه الحرب — فى طريقها إلى الاستقلال التام ، بقيت على تحقيقه بضع سنين ...

أما انجلترا فما ذا سيكون شأنها ، وما هى نواياها فى السلم ، وما هى نظرتها الى الشرق ومستقبله ؟

الانجليز وحدهم يعلمون هذا ، وليسوا جميعا سواء فى العلم به وهذا سرهم الذى لا ندعى أننا وقفنا عليه ... ولكن هناك قضايا مشتركة يجب أن نضعها أمام عينينا ، وستهدينا الى جواب ، ان لم يكن صحيحا ، فهو يجاور منطقة الصواب ، ويسعى إليها .

فقد أشرت فى مقدمة الكتاب الى القوى العالمية الضخمة التى بدأت تظهر فى الوجود ، التى ستكون عاملا هاما فى تكييف السياسة الدولية — ومنها سياسة انجلترا . وأهم هذه القوى روسيا .

ومهما قيل عن الصداقة بين الروس والانجليز ، ومهما مدح التحالف بين الشعبين ، فهذه ضرورات حرب ، يعلم الله وحده ما ذا ستصير اليه فى السلم . ولم يقل أحد أن الروس قد زهدوا فى مطامعهم القديمة ، وأهدافهم التقليدية . كما أن أحدا لم يقل إن انجلترا تخلت عن سياستها المأثورة ، وهى إيجاد توازن دولى يمنع

حدوث الحرب أطول مدة ممكنة . وانجلترا لا تستطيع أن تضع يدها فى يد روسيا صديقة لها فى السلم إلا اذا أمنت جانبها ، و الا اذا أمنت طغيانها على القارة الأوربية وعلى منافذ الملاحة الحيوية فى البحر المتوسط .

ولا سبيل لأن تأمن انجلترا على مستقبلها ، مع الروس ، ومع غيرهم الا اذا عاشت فى ود مقيم ، وصداقة كريمة مع شعوب الشرق الأدنى ، مع الشعوب العربية وتركيا بصفة خاصة التى تملك منافذ البحرين الأبيض المتوسط والأحمر والبحر الاسود أيضاً ، وتملك الخليج الفارسى ، وتملك أعظم آبار البترول فى العالم القديم باستثناء آبار القوقاز الروسية ، فانجلترا فى حاجة ماسة الى معاونة الشرق الأدنى . وانجلترا لا تضمن هذه المعاونة الا اذا طبق عليها ميثاق الاطلنطى، وطبق بسخاء . والذى نعلمه أن انجلترا لا تسر كثيراً اذا اضطرتها الظروف الى ايجاد حاميات قوية تجبر هذه الشعوب على أن تكون لها كما تريد ، ولكنها تسر كثيرا اذا كان سفراؤها فى القاهرة وأنقرة و بغداد ودمشق وجدة ، وسفراء هذه العواصم فى لندن هم وحدهم المنوطون بتنظيم الصلات بين البلادين دون الالتجاء الى القوة أو التهديد بها ...

فانجلترا تعلم قبلى وقبلك وقبل أى انسان أن سكانها — اذا

صح إحصاء علمائها — سيصلون بعد أربعين سنة إلى ٣٣ مليون نسمة فقط ، وأن سكان روسيا سيصلون بعد نفس هذه المدة إلى ٢٧٠ مليون نسمة أى أنهم يزيدون مئة مليون فى أربعين سنة... وانجلترا تستطيع أن تضمن لها أسرة دولية تحرص على سلامة مصالحها وتغنيها عن العدد الوفير والتكاثر به . ففى هـذا مصلحتها المحققة . وفى هذا أيضا مصلحتنا نحن أبناء الشرق الأدنى .

وهناك مشكلة واحدة يجب أن تحل ، وهى الثقة ، وحسن الظن . فان المتشائمين يقطبون وجوههم ، ويقولون انظروا إلى الماضى القريب والماضى البعيد ، ففيه شواهد على ما نريد . ولهؤلاء نوجه القول ، ونؤكد أن هناك عناصر كثيرة جداً يجب أن تبدد هذا التشاؤم وتحيله إلى تفاؤل . وهل هناك أكثر من أن يرى تشرشل مفخرة حياته فى ميثاق الاطلنطى — الذى يضمن حريات أربع — للشعوب كلها ، وهو الذى كان يقول قديماً أنه لا يخرج انجلترا من الشرق إلا قوة أو حرب عظيمة .

لقد تغيرت الدنيا ، فيجب أن نضع مقاييسنا على هذا الأساس وأن نفتح النوافذ لكى يدخل هواء جديد يطرد جو الشك القاتم الفاسد الذى عاش فى غرفنا مدة ستين عاماً أو أكثر وكان له فى معظم الأحيان ما يبرره ...

فلننظر إلى انجلترا وسياستها من خلال ميثاق الاطلنطى ، ولنتعامل معها على أساسه . وسنستريح نحن ، وتستريح انجلترا . وليس لدينا وقت نضيعه فى المناقشات الجوفاء ، لأن تاريخ الشعوب يحصى فى هـذا العهد بالثوانى والدقائق ، ومصائرها تتوقف على عمل ناجح موفق ، وقد يؤذيها تصرف أهوج لا يتسم بالحكمة والسداد .

٥

مستقبل تشرشل

ظهرت شخصية تشرشل ، وبلغت أوجها فى هذه الحرب ، وبعد أن بلغ السبعين . وكان يظن منذ عشرين سنة أنه قد أدى دوره ، وما تبقى منه قليل . فاذا هو يطفو على السطح ، والفضل كل الفضل لهتلر ، الذى كانت تستثيره كتابات تشرشل وخطبه ، فكان يراه أكبر داعية للحرب . فلما جاءت الحرب كان الند الأول لهتلر هو تشرشل ... وهذه مفارقة عجيبة ، نظائرها فى التاريخ قليل ، وهى أن يصل رجل إلى قمة النجاح وهو يقترب من السبعين وبعد أن نسى عشرين سنة . ونجاح فى أى ظرف... فى ظرف حرب تحتاج إلى عمل لا ينهض به شيخ ، ولكن يحتاج إلى عصبة قوية من الشباب تسيره .

وعجيبة قوة تشرشل البدنية التى تشبه قوته المعنوية . فقد تحدث مرة مع مونتجمرى ألمع قواد الانجليز فى هذه الحرب . فقال له القائد : إننى لا أدخن ولا أشرب الخمر وأنام مبكراً ، ولذا

احتفظت بقوتى . فقال له تشرشل : أما أنا ، فأدخن ، وأشرب ولا أنام مبكراً ، وما أزال محتفظا بصحة جيدة ... وفرق ما بين الرجلين ثلاثون عاما أو نحوها ! وهذه هى الحياة وهذا سرها . أو يمكن القول بأن الرجلين يشبهان وجهى الدرهم إذا رأيت أحدهما قلت هو الحياة ، و إذا رأيت الوجه الثانى قلت أيضا هو الحياة .

ولقد مرض هذا الرجل الشيخ مرتين فى هذه الحرب بالتهاب رئوى يموت به الملايين كل عام ... ولـكنه مع هذا برىء ، ولم يكف عن ركوب الهـواء فى أعلى طبقاته الباردة محلقا فوق بلاد عدوه ، فقد رحل فى هذه الحرب رحلات هائلة . ففى شهر نسمع أنه فى موسكو عن طريق الشرق الأدنى أو فى وشـنطن . وفى وقت آخر نسمع أنه فى أنقرة ، وفى القاهرة ، وفى طهران ، وفى الدار البيضاء ، وفى روما . فهو حركة لا تهدأ ، ولا تعرف للسن حدوداً ولا معنى ، وكأنه كلما ازداد نشاطا ازداد شبابا ...

وللواقع أنه بقدر مسؤولية الرجل ، تزيد حيويته ، وقدرته وجلده . وليس تشرشل رجلا عاديا ، ومسؤولياته لم يضطلع بها رجل منذ وجدت الدنيا حتى اليوم ، ومع هذا فهو ينهض بها ، و يجد وقتا لحضور روايات لوريل وهاردى ، وقراءة القصص .

حدث فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ أن علم تشرشل — وكان

وزير الأسطول — أن الحرب واقعة حتما بعد أمد قصير ، فأصدر أمراً تحت مسؤوليته الشخصية ، بأن يعبأ الأسطول وأن يأخذ مراكزه للقتال فوراً .

وهذا أخطر قرار يمكن أن يصدر فى انجلترا ... فلما زاره أحد أصدقائه بعد إعلانه ، وجده يقرأ قصة ، ويتابعها بعناية .. فقال له وقد روعه ما رأى : تعبىء الأسطول للحرب ، بقرار تصدره فى دقائق ، ثم تجلس على كرسى مريح لتقرأ قصة ؟ !

فأجابه تشرشل فى هدوء :

— لقد عملت كل ما يمكن عمله ، فماذا تنتظر منى أن أصنع ؟

ثم تابع قراءة القصة المسلية !

وتشرشل الآن فى أوج المعركة العالمية ، وقد أعادت له رائحتها كل حبه للمغامرة ، حتى أنه كان يريد أن يكون فى أول سفن الأسطول التى أنزلت جنود الحلفاء لغزو نورمنديا . وكان وقتها يتقمص روح الشاب الملتهب حماسة على حدود الهند أو عند أطلال الخرطوم ، أو فى سجن بريتوريا ... فلما ألح الجنرال ايزنهاور فى الاعتذار ، ألح تشرشل فى العرض ، ولما ينقذ القائد العام من رئيس الوزراء إلا ملك انجلترا نفسه الذى دق التليفون ، وطلب من تشرشل أن يعدل عن هذه الرغبة . فقبل كارها متذمراً ...

ولكنه مع هذا لم يسكت ، فما أن وجدت المعابر حتى كان يرتاد نورمانديا ، وهى تغلى بالحرب غليانا كأنه يذهب إلى ملعب تمثيل أو دار سينما .

وقد صدق من قال إن تشرشل سيقضى آخر يوم فى حياته وهو يخوض معركة ، ولو معركة انتخابية فى أحد الطرقات !

وبقى علينا أن نسأل السؤال الأخير :

لقد قاد تشرشل انجلترا فى حربها الحاضرة أحسن قيادة ، وحمل له كل انجليزى فى سويداء قلبه ذكرى امتنان لا تمحوها القرون . فهل سيبقى تشرشل معبود الانجليز فى السلم كما هو الآن فى الحرب ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال يجب أن ننظر إلى أبطال الحرب الماضية فى دول الحلفاء :

فأما لويد جورج ، فقد أهملته انجلترا بعد فرسايل ، وانهار حزبه الضخم — الأحرار — حتى أصبح ركاما ، مع أنه قاد بلاده إلى النصر .

وأما كليمنصو — النمر الفرنسى — فقد سقط فى انتخابات الجمهورية التى خاضها ، وألزمه الشعب بأى يأوى إلى قريته ، وهو الذى أنقذ فرنسا من هزيمة فادحة .

وأما ولسن ، فقد نبذته بلاده عقب عودته فى فرسايل ، لأنه دون صاحبيه خسر السلم ، وباء بصفقة المغبون .

فلماذا هوى أبطال الحرب الماضية وصفق الرأى العام لسقوطهم ؟ !

ذلك لأن الشعوب الديمقراطية العريقة تأبى أن تستعبدها شهرة أحد ، حتى لا يطغى على حريتها إن هى أسلست له القياد . وهى تكتفى منه بالنجاح فى المعركة التى يقودها . أما ما بعد هذا فللسلم رجاله ، وليكونوا أنصاف أقوياء ، أو أنصاف نوابغ ... فهؤلاء خير من الذين يدلون بماضيهم ، وقد ينفخهم الزهو فيزلوا زللا كبيراً ...

وليس هذا المعنى حديثا فى تاريخ العالم .

فما نزال نذكر كيف أنزل عمر بن الخطاب قائد المسلمين الكبير خالد بن الوليد من أوج مجده « حتى لا يفتن به الناس » .

هذا ما كان فى الماضى . فماذا سيحدث فى المستقبل القريب ؟

الحوادث وحدها تجيب على هذا السؤال ، وتشرشل قادر على أن يحتفظ بمحبة قومه له إذا طبق وعود الحرب فى السلم ، وضمن لبلاده مستقبلا طويلا من الأمن حتى تلتئم جراح هذه المعركة الهائلة التى أصابت أهلها ومدنها .

ما تحتاجه انجلترا هو سلام دائم أو بالقليل سلام طويل الأمد . فاذا حقق تشرشل هذا المعنى ، وترجمه إلى العمل ، فسيظل على عرش بطولته ما تبقى له من عمر ... وأكبر الظن أنه يفهم جيداً حقيقة مركزه ، فما عرف عنه — وقد تجمعت له سلطات ضخمة — أنه استعلى أو استكبر ، فهو دائما يقول وينادى أنه خادم البرلمان البريطانى ...

والستار يرفع تباعا عن بقية القصة التى يقوم بالدور الأول فيها ونستن الطيب العجوز — كما يسميه قومه — والمشاهد تتوالى ، وعسى أن نتمكن من إضافة جديد عنها فى طبعة تالية .

محمد صبيح



فهرس

ما صدر من كتب الشهر

السلسلة الإســـــلامية

---

١ — القرآن الجزء الأول	١١ — خالد
٢ — « الجزء الثانى	١٢ — عمرو بن العاص
٣ — محمد عرض عام	١٣ — طارق بن زياد
٤ — « حتى أحد	١٤ — معاوية
٥ — « ويهود الجزيرة	١٥ — عمر بن عبد العزيز
٦ — « حتى الفتح	١٦ — أبو مسلم الخراسانى
٧ — أبو بكر	١٧ — أبو جعفر المنصور
٨ — عمر	١٨ — هارون الرشيد
٩ — على الجزء الأول	١٩ — المأمون
١٠ — « « الثانى	٢٠ — صلاح الدين الأيوبى

وستظهر فى السلسلة التى تصدر الآن أعداد جديدة من قادة الاسلام وأبطاله الذين لم نؤرخ لهم فى السلسلة السابقة .

وقد نفد معظم أعداد هـذه السلسلة ، وسيعاد طبعها قريبا إنشاء الله..

تصدر هذه الـكتب دار الثقافة العامة

١٦٠ شارع محمد على بالقاهرة

ت ٥٤٥٩٩

كتاب الشهر	دار الثقافة العامة شارع محمد على ١٦٠ بالقاهرة	كتاب الشهر
١ ـ العدد الأول	المحرر المسؤول : محمد صبيح	مجلة نداء الحرية
١ - ٩ - ١٩٤٤	ت ٥٤٥٩٩	المجموعة الثانية

المجموعة الثانية من كتب الشهر

تصدر تباعا أول كل شهر

الملك فؤاد
الملك فيصل
الملك حسين
الرئيس عصمت أينونو
تشرشل « صدر »
روزفلت
شيانج كاى شك
ستالين
سمطس
إبراهام لنكلن
جورج واشنطن
نلسن

الامام محمد عبده
المهدى
كتشنر
مصطفى كامل
سعد زغلول
اللنبى
عبد القادر الجزائرى
محمد بن عبد الكريم

مصانع فورد
قنال السويس
الأسطول البريطانى
الأزهر
كمبردج واكسفورد
نهر النيل
جريدة التيمس
تركيا
الهند

المثنى بن حارثة ـ أبو عبيدة بن الجراح ـ خالد بن الوليد

ثمن الكتاب ٥٠ مليم

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه